الفصل الرابع

600,000 قرية

في شهر نيسان الماضي، وفي أوج موسم الجفاف، وبينما كانت التقارير الإخبارية عن إقدام المزارعين على الانتحار في ڤيداربها، وهي منطقة تقع شرقي ولاية ماهاراشترا، ترد إلى الصحافة الهندية أسبوعياً، تلقيت اتصالاً هاتفياً من صديق قديم يعمل صحافياً في بومباي اسمه ديليب دسوزا. وقد دعاني للانضام إليه في رحلة كان ينوي القيام بها لزيارة القرى التي كانت تشهد حوادث انتحار المزارعين. وبعد ذلك بإسبوعين كان القطار الليلي قد استقلني من بومباي إلى نيابور، أقرب مدينة رئيسة إلى القرى الواقعة في منطقة ڤيداربها التي أردنا زيارتها.

ولم أكن قد سافرت بالقطار في الهند منذ أيام الدراسة، حينما كان الوقت متاحاً لي بشكل أكبر في حياتي، وكانت الخطوط الجوية الوحيدة آنذاك والمكلفة نسبياً، التي تفتقر إلى الكفاية بصورة بالغة، هي شركة الخطوط الهندية التي تديرها الدولة. التقيت ديليب في البيت في باندرا، واستقلنا قطار السكة الحديد الذي ينتقل بين المدينة والضواحي إلى محطة دادار، حيث استقلّنا قطارنا إلى نيابور. ودادار هي عبارة عن محطة تقع في الضواحي، قذرة وهزيلة ووجودها ليس عبثياً. كان هواء أواخر نيسان دافئاً وثقيلاً حتى في المساء. وزحف زوجان من الفئران على طول السكك الحديدية، وانزلقا داخل فتحة بمحاذاة أسفل رصيف المحطة في حين بدأ القطار بالسير. وقام ديليب الذي يقول: إن أجهزة تكييف الهواء تجعله يشعر بالغثيان، قام بمساعدتي على إيجاد مكاني في عربة نوم مكيَّفة من الدرجة الثانية، ثم تابع طريقه إلى عربته غير المكيفة. كان القطار ممتلئاً بالكامل تقريباً عندما صعدنا إليه، حيث كان قد انطلق من محطة المغادرة والوصول الرئيسة للسكة الحديد في مدينة بومباي المسماة تشهاتراباتى شيڤاجي.

ومحطة تشهاترا باتي شيڤاجي المعروفة سابقاً باسم «فيكتوريا تيرمينوس» Victoria Terminus ولا تزال تسمى (VT) من قبل السكان المحليين، مثال رائع على الهندسة المعمارية البريطانية الفخمة في الهند، وتتألف من مجموعة مبانٍ ضخمة من الأبراج المستديرة مع مزاريب منحوته في هيئة وجوه غريبة، تبرز إلى الخارج من قبته المركزية فوق السطح. وكان الشعور سيكون مختلفاً بالمغادرة من إحدى أكثر محطات القطارات شهرة في العالم بدلاً من محطة دادار البسيطة الخاصة بالضواحي، وكنت أشعر بالأسف لأننا لم نمتلك الوقت لكي نشق طريقنا إلى قلب المدينة لنركب من هناك. ولكن في اللحظة التي دخلتُ فيها إلى العربة، عادت كل قصص الأدب الروائي عن السفر بالقطارات في الهند ولاسيما قطار الليل، تتدافع في رأسي. ثم قمت بترتيب حقائبي وأومأت بالتحية إلى الركاب الذين يشاركونني مقصورتي، امرأة في منتصف العمر، وامرأة أكبر منها مع زوجها، ورجلان اثنان. وبعد زهاء ساعة من مغادرتنا لمحطة دادار، دخل علينا خادمٌ حاملاً شراشف بيضاء منشَّاة، ومخدات وبطانيات غليظة من الصوف. وقام بتحويل مقاعدنا إلى مراقد للنوم مثبتة بثلاثة أوتاد، وبتجهيز أسِرَّتنا. وقد هدهدني للنوم الاهتزاز اللطيف للقطار، وصوت الطَّرق المخفف للدواليب وهي ترتج لدى مرورها فوق عوارض السكة الحديدية الواحدة تلو الأخرى: كإيقاع نبضات قلب كبير لأم حنون.

وعندما استيقظت، كنت قد عدت إلى الهند التي تذكرتها منذ ما قبل الازدهار الكبير، وعاد الخادم وجرَّد المراقد من أغطيتها وقلبها في الهواء لإعادة المقاعد إلى وضعيَّتها المستخدمة أثناء النهار. وشق الركاب بشعورهم المنفوشة وثيابهم المجعَّدة طريقهم للوصول إلى الحمام للاغتسال؛ وبادرت بدوري للاغتسال عند مرحاض ومغسلة مصنوعين من الحديد الثخين الذي لا يصدأ، ارتفاعهما منخفض وكلاهما كانا أكثر نظافة من المرافق الفظيعة، التي تذكرتها منذ سنين خلت. وقامت مجموعة من العاملين في المطبخ بالتنقل بين عربات القطار يقدمون الشاي الساخن وبيضاً مخفوقاً مطبوخاً بمادة دهنية لطعام الإفطار. كان معظم الركاب قد أحضروا معهم مأكولاتهم الخاصة. وهيؤوا للأكل رقائق القمح وأرغفة الخبز المخمر الذي يُصنع في بلادهم، والبسكويت والفاكهة. وكوني أفتقد قهوة الصباح التي أتناولها عادة اشتريت سخاناً صغيراً من الشاي لكن مذاقه كان حلواً للغاية فلم أتمكن من شربه.

وفيحين كان محرك القاطرة يبطئ من سرعته وهو يدخل المحطات الواقعة على طريقه، أطلق صفيراً حزيناً طويلاً. وهرع الباعة إلى القطار حاملين معهم البرتقال، وشرائح من جوز الهند الطازج، الفستق المحمص، المزيد من الشاي، والمشروبات الغازية الباردة، ثم غادرنا المحطة. وانسابت أمامنا المناظر الطبيعية للهند الممتدة على مساحات شاسعة في شريط سينمائي بالألوان لا ينتهي من البلدات المغبرة، والقرى المتكدسة على بعضها بالقرب من مساجد ذات لون أخضر فاتح، وتماثيل أكبر من الحجم الطبيعي في بذات زرقاء لزعيم الداليت Dalit (المنبوذون) الدكتور بهيماراو رامجي امبيدكار Bhimrao Ramji Ambedkar، أو أعلام بلون الزعفران الأصفر الغامق ترفرف فوق معبد هندي. وانفتحت الحقول بلونها الزمردي على الفضاء الباهت الذي لا نهاية له. وقام مزارعون بشوارب عجيبة يرتدون أحزمة من القماش على وسطهم وعمامات زاهية الألوان، بقيادة ثيران مخصية صبورة عبر صفوف من الحقول المرتبة. وأومضت شجرة غولموهار Gulmohar (شعلة الغابة) رائعة بأزهار قرمزية معتقة بوفرة من الألوان ما لبثت أن اختفت. وكان هناك فتيان يحملون عِصيّاً طويلة يقودون الماعز عبر الأخاديد القاحلة؛ ومشت النسوة وقد انتصبت ظهورهن بشكل مستقيم تحت حمولات ضخمة من الحطب أو العلف على رؤوسهن. وكانت هناك قطعان من البقر بظهورها المحدبة وعيونها الشبيهة بعيون الظباء، ومجموعات من القردة الكبيرة المتراخية بوجوهها السوداء تتهادى تحت ظلال شجرة مانجو قديمة مثقلة بالثمار، وأذيالها مرفوعة مثل علامة التعجب. وعبر القطار نهراً في بولغاون، وقد كان مجرد مجرى هزيلاً في ذاك الوقت من السنة يتعرج عبر طبقة رملية واسعة. وغاصت الجواميس راضية في الوحل بالقرب من طيور الكركي البيضاء التي وقفت متوازنة بين الأوراق الطافية من زنبق الماء؛ وكانت النسوة تضرب الثياب بعنف على الصخور المتلألئة بصورة متكررة لتنظيفها وانبسطت خلفهن ثياب الساري الزاهية لتجف في صفوف من الألوان غير المتسقة.

هذه هي الهند التي يعرفها معظم الهنود. فسبعون بالمئة من سكان الهند يعيشون في المناطق الريفية. وهناك (120) مليوناً من الأُسر العاملة في الزراعة في الهند. وهناك ستمئة ألف قرية.

وكنت أسافر بالقطار في طول البلاد وعرضها في الهند، مستخدمة الدرجة الثالثة وأنا جالسة على مقعدٍ خشبي قاسٍ،طويل، وسافرت بالدرجة الثانية العادية على مقعد متسخ منجَّد بمادة الفينيل، كما سافرت بالدرجة الثانية المزودة بجهاز تكييف للهواء. وفي إحدى المرات وفي رحلة استغرقت سبع عشرة ساعة جلست على حقيبتي في أحد الممرات والتوى جذعي بشكل مؤلم بعيداً عن ساقايّ بفعل اكتظاظ الناس. كنت أركب في مقصورة النساء في طريقي لحضور مهرجان بوشكار ميلاً*، الذي يقام على هامشه معرض للمواشي والجمال يقبل عليه البدو الرحل بثيابهم البرَّاقة. وفي كل مكان حولي كانت هناك قرويات من راجاستان يرتدين ثيابهن التقليدية كاملة، وينشدن أغانيَ دينيةً ترددت عبر العربة، وكن يتبادلن الضحكات وهن يهدهدن أطفالهن في مهدهم، ويوبخن أطفالاً في أول عهدهم بالمشي، ويعيدون رواية قصص بذيئة.

تعود تجربة السفر بالقطار في الهند إلى القرن التاسع عشر. ويعد القطار، وهو ينزلق على قضبان منبسطة داخل مناطق داخلية واسعة لجلب المواد الخام إلى موانئ المدن الحيوية، تذكاراً مصنوعاً من الفولاذ لغزو كوكب الأرض على يد القوى الغربية الصناعية. فالطائرة النفاثة تقل الركاب إلى أيّ مدينة في الهند أثناء بضع ساعات. وتستغرق رحلة القطار وقتاً طويلاً، أياماً ولياليَ كاملة عبر بلد لا يشاهده أبداً ركاب الطائرات. وفي ختام الرحلة، وبعد تقاسم الوجبات الخفيفة، ومراقبة حقائب بعضهم أثناء استراحات الدخول إلى الحمام ومعرفة قصص حياة بعضهم واستماعهم إلى أصوات شخير البعض منهم، ويثير الفراق شعوراً بحزن غريب دائماً.

في بلاد القطن

من بين كل ثروات الشرق جميعها، كان القماش الناعم من القطن والحرير المحاك يدوياً هو الذي جذب الشركة البريطانية للهند الشرقية إلى الهند. ودفعت الشهية الأوروبية المفتوحة على أقمشة الكاليكو (أو الأقمشة القطنية الخام المسماة على اسم ميناء كاليكوت

* مهرجان ثقافي سنوي يقام في بلدة بوشكار المقدسة عند الهندوس، ويجتذب الحجاج لزيارة المعابد والاستحمام في بحيرة يُعتقد أن الإله براهما سبح فيها ذات يوم. (المترجمة)

الهندي الذي كانت تأتي منه) وأقمشة الموسلين والحرائر، والبيسلي المزركشة بالرسوم، والمشتق اسمها من بلدة بيسلي في سكوتلندا، دفعت الرجال الذين تم إرسالهم من إنكلترة من أجل توريد شحنات من هذه الأقمشة الفاخرة إلى حالة من الهياج. وقد خلب عقلهم الجشع فجمعوا واحداً تلو الآخر، ثروات كبيرة أو هلكوا أثناء المحاولة. وبهدف محاصرة تجارة النسيج قامت شركة الهند الشرقية ومن دون أية شفقة بإحالة كبار النساجين في الهند من وكلاء مستقلين يبيعون منتجاتهم الخاصة إلى موظفين للشركة، يقومون بحياكة ما يطلب منهم بأسعار تحددها الشركة ودون أن تكترث سواء رضوا بها أم لا. وكان مصير الذين اعترضوا قطع إبهامهم حتى لا يتمكنوا من الحياكة مرة ثانية إطلاقاً. وكان ذلك تصرفٌ وحشيٌ حكم عليهم بالموت جوعاً. وكان لتصدير القطن إلى إنكلترة دور في دعم الثورة الصناعية والدفع باتجاه اختراع وسائل تكنولوجيا جديدة لاستخدامها في أعمال الحصاد، وتصنيع وغزل وحياكة القطن ليغدو قماشاً. ونقلت المكننة عملية النسيج إلى خارج الهند وإلى مصانع جديدة في مدينة لا نكستر، بإنكلترة، التي شهدت نشاطاً كبيراً تركز على القطن الذي لم يكن لينمو أبداً في بريطانية الشديدة البرودة، وكانت أمتار القماش المنجزة تباع ثانية إلى الهنود.

زرع الإنسان القطن في الهند أول مرة قبل خمسة آلاف سنة. وتدل قطع النسيج القطني المأخوذة من الحضارة القديمة لوادي الأندوس على مهارة كبيرة في أشغال النسيج والطباعة. وكان هيرودوس قد أثنى على الأقمشة القطنية الهندية في القرن الخامس قبل الميلاد، وقامت الهند بتصدير القماش القطني إلى كل من اليونان وروما. ومن أنواع القطن التي تنمو في الهند هناك G.herbaceum وG.arboreum، وهذه أصناف متنوعة قصيرة التيلة. أما الأنواع الأمريكية من القطن التي تتميز بتيلة أطول G.hirsutum وG.barbadense فهي أيضاً تزرع فيها حالياً كما، تكثر أنواع القطن المهجنة. وهناك زهاء مئتي صنف مختلف من القطن يزرع في الهند، وتتم مواءمة أصناف القطن الطبيعي قصير التيلة بشكل جيد مع الظروف المحلية، وهو مناسب تماماً للحياكة اليدوية. وتتطلب آلات النسيج التي تعمل بالكهرباء أو الأنوال الكهربائية توفر المقاومة الأعلى للشد التي تميز قطن التيلة الأطول. وتحدد ملاءمة القطن للأنوال الكهربائية قياس جودته. والقطن ذو المقاومة الأعلى للشد والتيلة الأطول يحصل على علامة أعلى، وبالآتي يحصل المزارع على سعر أعلى.

والخصم الرهيب للقطن هو حشرة Anthonomous grandis Boheman، المعروفة بالأحرى باسم خنفساء القطن. وتطير الحشرات المجنحة مكتملة النمو في حقول القطن، حيث تتزاوج وتضع الإناث بيوضها في أزهار القطن. وتكبر الشرنقة داخل جوزة القطن التي تضم البذور فتتلفها. وكان المزارعون الهنود قد بدؤوا باستخدام المبيدات الحشرية في الأربعينيات من القرن الماضي. وقد كانت فاعلة في البداية بشكل رائع غير أن الخنافس سرعان ما أصبحت قادرة على المقاومة. وجاء بعد ذلك جيل جديد من المبيدات الحشرية تمكن من السيطرة على خنفساء القطن، ولكنها أصبحت مقاومة لهذه المبيدات على السواء، مع مرور الوقت. ويُستخدم سبعون بالمئة من المبيدات الحشرية في الهند في رش القطن، ومع ذلك فقد ازدادت مقاومة خنفساء القطن بشكل قوي جداً إلى حد أن الاستعمالات المتعددة للمبيدات الحشرية، التي وصلت إلى عشر دورات من رش القطن سنوياً، ليس بإمكانها السيطرة على هذه الحشرات.

وصل القطار إلى مدينة نايبور في الساعة الثامنة والنصف صباحاً. وكانت الحرارة قد بلغت الآن أكثر من مئة درجة فهرنهايت. ووجدنا خارج المحطة السائق الذي استأجره ديليب، والحمد لله أن ديليب كان بمقدوره تحمل تشغيل مكيف الهواء في السيارة، فطلبت من السائق أن يثبت برودته عند أعلى درجة. وتقع نيابور في وسط الهند بالضبط وقد تم اختيارها لتكون الموقع المستقبلي لأول مركز للشحن الجوي، حيث تعتزم شركة «بوينغ» بناء مركز صيانة جديد للطائرات لقارة آسية بأكملها هنا. وتشتهر نيابور عادة وبدرجة أكبر بكونها عاصمة البرتقال في البلاد. وكانت هنالك لوحات إعلانية عن البرتقال في كل مكان. وقد مررنا ببرتقالة عملاقة مصنوعة من الإسمنت، قائمة فوق نصب خاص على عامود على جانب أحد شوارع المدينة.

كانت وقفتنا الأولى لتناول طعام الإفطار مع الصحافي جايديب هارديكار الذي كتب تقارير مكثفة لصالح مجموعة متنوعة من المطبوعات حول المنطقة التي شهدت حالات انتحار المزارعين. وقد ذهبنا إلى شقته المتواضعة، حيث جاءت عدة قطط منزلية تحتك بأقدامنا في حين كنا نستمتع بتناول فطور مكون من الشاي و«الأوپاما» Uppama، وهو طعام إفطار شائع في جنوب الهند مصنوع من السميد. وأعطانا جايديب فكرة عن المناطق التي

ربما نرغب في تفحّصها، وبعض المعلومات الأساسية عن كيفية تردي وضع المزارعين إلى هذا الحد مما جعلهم يشعرون بمنتهى اليأس.

وبينما تتمتع النخبة الحضرية المتعلمة وكبار الملاك في الهند بالازدهار الاقتصادي، فإن الملايين من الأسر الهندية العاملة في الزراعة تكافح بصعوبة لتأمين قوتها. فقد أوقفت الحكومة بعض إجراءات دعم الأسعار وشحت الأمطار أو لم تعد تهطل بانتظام، وانخفض مؤشر الجدول البياني للمياه، وجفت الآبار. وهذه المشكلات مألوفة للمزارعين الأمريكيين غير أن معظمهم يحصلون على دعم حكومي أكثر مما يحصل عليه المزارعون في الهند، وعندما يخفق كل شيء، فإن هناك احتمالاً بأن يتمكن المزارعون الأمريكيون من الحصول على وظيفة خارج المزرعة، أما المزارعون الهنود فليسوا محظوظين إلى هذه الدرجة. وفي مسعى منهم من أجل البقاء، يقوم المزارعون باقتراض النقود بمعدلات فوائد فاحشة، أشبه بالربا، وذلك لشراء بذور جديدة هجينة ومعدلة هندسياً، وأسمدة صناعية ومبيدات حشرية وكلها باهظة الثمن. وللحصول على النقود التي يحتاجونها من أجل سداد هذه الديون، فإنهم يغيرون طبيعة الإنتاج إلى حد أكبر حتى من الزراعة المعيشية أو ما يعرف بزراعة الكفاف لغرض الاستهلاك الشخصي وليس للبيع، إلى المحاصيل النقدية. وعندما تفشل هذه الخطط لا يكون أمامهم من وسيلة لتسديد ديونهم، ولا طعام كذلك. وقد تضافرت هذه العوامل لجعل مستقبل الآلاف من المزارعين الهنود قاتماً جداً إلى حد أنهم يبذلون الطاقة الوحيدة المتبقية لهم في مواجهة مصيرهم: يقتلون أنفسهم.

منذ عام 1997. أقدم أكثر من مئة ألف مزارع هندي على الانتحار. ويرتبط هذا الرقم المخيف مباشرة بالتغييرات التي طرأت على السياسة الزراعية للهند، وفقدان فرص الائتمان المشروعة التي تدفع المزارعين إلى الاقتراض من المرابين الجشعين، وأزمة مياه خطيرة[1]. والولايات الأسوأ تأثراً بها هي اندرا براديش، كارناتاكا، كيرالا، وماهاراشترا. ومما يدعو للسخرية أن هذه هي الولايات التي ازدهرت فيها المراكز الحضرية أثناء المدة نفسها، مدينة حيدرآباد في اندرا براديش، بنغالور في كارناتاكا، تريفاندرام في كيرالا، وبومباي في ماهاراشترا.

غادرنا شقة جايديب ونحن نشعر بالانتعاش والحماسة للخروج إلى الريف. فقد أَفسحت المدينة المجال أمام قيام ضاحية خارجية شبه ريفية ونصف صناعية تقيم فيها العائلات الثرية. وكانت هناك معامل يعلوها الغبار، ومن الواضح أنها معامل مهجورة ذات إنتاج محدود، ودكاكين صغيرة مبنية من الإسمنت، ونساء يحملن أكداساً من الفروع الملتوية للحطب على رؤوسهن. وظهر لنا فجأة من خارج هذا المشهد الجاف للغاية والمُلفح بشمس نيسان، متنزَّه مائي ضخم، قصر مشيد على طراز العصور الوسطى في أوروبة، يضم عدة مبانٍ مع أبراج صغيرة ذات شرفات. وعلى الرغم من أنه كان يوماً حاراً في أثناء العطلة الصيفية في الهند، فإن المتنزَّه كان مغلقاً. وعلى بعد كيلو مترات قليلة فقط أسفل الطريق رأينا لوحة إعلانية كبيرة تقول: «متنزَّه هايلاند! أعلى التلة، حافل بالإثارة!» وكان هناك حول المنعطف الآتي على تلة صغيرة لونها بني، أيضاً حديقة ملاهٍ أخرى، فيها عجلة حديدية ضخمة وعربة ركوب أشبه بتنين طويل مع مقاعد مصفوفة على ظهره، وعدد من المنحدرات المائية. وكانت مغلقة بدورها وبدت نصف مهملة.

كان لدى ديليب لائحة بأسماء المزارعين الذين كانوا قد انتحروا مؤخراً نشرتها منظمة ڤيداربها جان اندولان ساميتي (VJAS Vidarbha Jan Andolan Samiti)، وهي منظمة يديرها كيشور تيواري، تناصر مزارعي الإقليم في محنتهم[2]. وتشير اللائحة إلى اسم كل ضحية، والمنطقة التي تقع فيها قريته. وتم جمع الأسماء من تقارير تشريح الجثث والتقارير الصحافية التي جرى توثيقها بشكل فردي عن طريق منظمة VJAS. وقد قررنا أن نركز على بعض المناطق التي بإمكاننا زيارتها في جولة ليست لها وجهة محددة.

وعلى الطريق السريع المؤلف من مسربين ارتجت الشاحنات الكبيرة في سيرها، وقد كتبت عليها كلمات مطلية بألوان زاهية تقول: «استخدم آلة التنبيه من فضلك»، وتتوسل إطلاق بوق السيارة أَثناء التجاوز. وانطلقت سيارات الدفع الرباعي بسرعة هائلة متجاوزة غيرها دون أن تطلق أبواقها، ولا حتى حول المنعطفات المخفية. وكانت العربات ذات العجلات الثلاث تميل على نحو خطير وهي محملة بحمولات زائدة من منتجات المزارع أو الأشخاص. وكل بضع دقائق كانت هناك سيارة تمر في الاتجاه المعاكس تنذر بالاصطدام بنا وجهاً لوجه، وتنحرف داخل مسربها الخاص بها في اللحظة الأخيرة. وكانت هناك شاخصات عديدة على

الطريق تحث على الالتزام بتعليمات القيادة الآمنة؛ وكنا أنا وديليب نسخر من استطلاعها أولاً ثم من قراءة مضمونها: «علامات الطريق هي علامات الحياة» «الطريق السريع ليس وسيلة للطيران» وهناك لافتة ذات فحوى غامض، عند جسر فوق أحد الأنهار، تقول: «الرجاء عدم الغوص في الأعماق». تركنا الطريق السريع وتوجهنا خارجه في امتدادات أسفلتية ذات مسرب واحد تتقاطع مع الحقول. كان هناك قطن في كل مكان، إلا أن وقت الحصاد كان قد فات، وكانت النباتات متغضنة منكمشة، وكان لونها بنياً. وكان الكثير منها يحمل أوراقاً باللون الأحمر القريب للون الصدأ المائل للحمرة، التي تدل على إصابتها باللاليا Lalia، وهو مرض يحول لون القطن إلى اللون الأحمر، ويتلف النبات. وتوقفنا لنستفسر عن الاتجاهات، وأخبرنا الناس الذين التقيناهم عن سبب مجيئنا إلى المنطقة، وسألناهم ما إذا كانوا يعرفون أي شخص أقدم على الانتحار مؤخراً. وقد أرشدنا القرويون على الفور إلى الضحايا ممن لم يرد ذكرهم في قائمة منظمة «فيدا ربها يان آندولان ساميتي».

وخارج مدينة آكولا الصغيرة، وجدنا أنفسنا في قرية دادهام، وهي تجمع نموذجي لمنازل متداعية آيلة إلى السقوط، بعضها مبنية من مواد محلية عبارة عن سياجات من أغصان صغيرة مضفورة مغطاة بالطين ومسقوفة بسطوح من الآجر، وبعضها أكواخ بسيطة مؤلفة من غرفة واحدة من الإسمنت. ولم تكن أي من الأزقة في القرية معبَّدة، وجرت مياه الصرف الصحي في جداول صغيرة، حيثما كانت تسحبها الجاذبية الأرضية، وأحياناً عند حافة الأزقَّة ولكنها كانت في أغلب الأحيان تلتف لتتجمع في الوسط. وغفت كلاب نصف برية في الظل، فيما كانت الخنازير تنبش في الروث، والأبقار مربوطة من عقالها تحت أشجار الأكاسيا الصغيرة. وجاء إلينا زعماء القرية ورافقونا باتجاه مكتب المجلس المحلي فيها، ويدعى Gram Panchayat «غرام بانتشايات». وحظينا باستقبال معد سلفاً من جانب هؤلاء القرويين. فالوضع الذي يعيشه المزارعون في هذه المنطقة هو وضع قاسٍ، يبعث على القلق، وكان وصول صحفي من بومباي وكاتب أجنبي يعني أمراً واحداً فقط لهؤلاء الناس: من المؤكد أننا كنا هناك لتقديم المساعدة.

يعد «Gram Panchayat» الهيئة الحاكمة على مستوى القرية. وكل قرية في الهند لديها «Panchayat» أو مجلس محلي يتألف من خمسة أعضاء ويتخذ قراراته بشأن القضايا

المحلية، ويتلقى التمويل الحكومي المخصص للقرية. ومكتب «غرام بانتشايات» في دادهام هو مكتب نموذجي: غرفة واحدة، داخل كوخ إسمنتي بنوافذ مفتوحة تحميها قضبان حديدية، ومزينة بمجموعة من الصور القديمة المعلقة أسفل السقف مباشرة لأبطال قوميين وأبطال إقليميين: غاندي، Gandhi، نيتاجي سوبهاش تشاندرا بوز Netaji Subhash Chandra Bose، راجيف غاندي Rajiv Gandhi، شيفاجي Shivaji، امبدكار Ambedkar، واحدثها انديرا غاندي Indira Gandhi التي اغتيلت في عام 1984. وكان هنالك خلف رأس بوز عصفور من عصافير الدوري مشغولاً» بإعادة ترتيب عشه. وكانت هناك أيضاً صور لاثنين من الشخصيات المقدسة: ساي بابا Sai Baba وبوذا Buddha.

وقرية دادهام، مثلها مثل كل القرى التي زرناها هي قرية من الداليتس Dalits أو المنبوذين، أدنى طبقة اجتماعية في التسلسل الهرمي الطبقي الصارم والمتزمت في الهند، وهي تعد وضيعة جداً، وأدنى من الفئات الاجتماعية الرئيسة الأربع الآتية، وهي حسب الترتيب التنازلي: «البراهمانس» Brahmans أو العلاَّمة من رجال الدين Kshatriyas «كشاترياس» أو المحاربون النبلاء، التجار، والمزارعون. وعندما سألنا القرويين عن ديانتهم أجابوا بشكل حتمي «البوذية» الديانة التي اعتنقها آمبيدكار، الزعيم الكبير للمنبوذين في الهند، وذلك للتخلص من تشدد النظام التراتبي الاجتماعي القاسي في الهند. وبدلاً من المعبد الهندي أو المسجد الإسلامي، كانت لدى هؤلاء القرويين تماثيل بالحجم الطبيعي أو أكبر من الحجم الطبيعي لآمبيدكار وهو يقف مبتسماً مرتدياً بذة على الطراز الغربي باللون الأزرق المائل للحمرة، وواضعاً نظارات ذات إطار أسود. وأسرع اثنان من كبار السن في القرية وستة من الشباب للتجمع في مكتب المجلس المحلي، وقمنا جميعنا ومن باب الاحترام بخلع أحذيتنا قبل دخول المبنى. وبدا أن الأرضية الإسمنتية المغبرة لم تكنس منذ أسابيع، وتمت دعوتنا للجلوس على كراسي مصنوعة من مادة البلاستيك حول طاولة خشبية. وكان الأثاث الآخر الوحيد في المكان لوح أسود مثبت على الحائط (سبورة) وخزانة معدنية قديمة. وروى لنا الرجال قصتهم.

كان بريمتشاند باندورانغ كيول في الثانية والعشرين أو الثالثة والعشرين من العمر عندما انتحر بشرب المبيد الحشري السائل. كان والده مصاباً بمرض الجذام وعهد بمزرعته

التي تبلغ مساحتها فدانين إلى ابنه بريمتشاند للعناية بها. وبهذه المساحة فقط من الأرض التي زرعها بالقطن، كان بمقدور الأسرة أن تعيش بصعوبة. واحتاج والد بريمتشاند إلى الدواء ولم يكن المال متوافراً لديه، لذا، ومثله مثل العديد من الأشخاص الآخرين في القرية والملايين من الناس الفقراء في كل أنحاء الهند، اقترض بريمتشاند ألفي روبية (زهاء 45 دولاراً) من مرابي خاص. وكان هذا المرابي واسمه بهاندو واكير يعيش في بلده آكولا. وكان عدة أشخاص في القرية مدينين له بالمال، وكان يأتي إلى المنطقة بشكل منتظم ودائماً في صحبة اثنين من ذوي العضلات المفتولة، من أجل تحصيل ديونه على القرويين. وكان واكير يفرض فائدة بنسبة (10) بالمئة - أسبوعياً. بادئ الأمر كان بإمكان بريمتشاند أن يدفع له الفائدة المطلوبة ولكنه سرعان ما تخلف عن الدفع؛ وفي حين كانت ديونه تزداد بشدة لم يعد هناك أي أمل بتسديدها.

كان المرابي واكير يُرهب القرية، كان يمشي فيها بخُطا واثقة وكأنه يمتلك المكان، ويقتحم البيوت ويضرب الناس «كان الناس خائفين جداً. قال لنا أحد الرجال: » كانوا يفرون ويختبئون حتى يرحل. وكان قد اعتاد على أخذ أشخاص معه إلى منزله في آكولا، وضربهم هناك أيضاً»، وقال الرجال إن بريمتشاند شهد في أحد الأيام عملية تعرض قروي آخر، كان مديناً لواكير بالمال، لضرب وحشي. كان مذعوراً جداً وخرج إلى الغابة وابتلع السم». ثم قام بجر نفسه عائداً إلى القرية ومات ميتة أليمة. كان بريمشتاند متزوجاً وعنده ابن في عامه الأول.

وعندما اكتشف واكير أن ضحيته قد قتل نفسه استشاط غضباً. وهجم على القرية محطماً الأبواب وهو يخور كالثور، ودخل منازل أشخاص آخرين يدينون له بالمال وأساء معاملة زوجاتهم، فعلياً. وخرج إلى حقول بريمتشاند فوجد زوجته وأمها تعملان هناك. وضرب والدة بريمتشاند بوحشية شديدة إلى درجة أنه أصابها بكسر في الفخذ. وقال لها عندما انتهى: إذا ما أقدمت على الهروب فسوف أغتصب ابنتك. وأقفل عائداً بخطوات ثقيلة إلى القرية، وحطم خم الدجاج الذي تملكه الأسرة وهشم دراجة نارية. ثم غادر المكان.

كان واكير قد تجاوز حدوده. وكان القرويون غاضبين. ونسوا خوفهم وأقسموا على منع واكير من ترهيبهم. وبعد ظهر ذاك اليوم عاد واكير. كان ثملاً ومغروراً جداً بحيث جاء

دون حراسه الشخصين. فحاصره رجال القرية وانهالوا عليه ضرباً حتى الموت بالهراوات الطويلة (المستخدمة في كل أنحاء الهند حتى من قبل الشرطة لضرب الناس) واستدعى رجال القرية الشرطة في الرابعة بعد الظهر ولكن عناصرها لم يحضروا حتى الساعة التاسعة مساء. واستغرب رجال القرية لأن الشرطة تأخرت كثيراً، فعندما كانوا يستدعونهم في الماضي أثناء حالات هياج واكير لم تكن الشرطة لتستجيب على الإطلاق. وذكر رجال القرية أنهم كانوا قد سمعوا واكير يتحدث على هاتفه الخلوي قائلاً: «اخرس. لا تتدخل أنت تتلقى مبلغ الخمسين ألفاً المخصص لك».

وعندما حضرت الشرطة أخيراً طلبوا معرفة من كان مسؤولاً عن مقتل واكير. ولم يكن أحد ليقول أي شيء. وبدلاً من ذلك أبلغ القرويون الشرطة بكل ما أقدم عليه واكير من أفعال سيئة بحقهم، ثم تقدم أحد الرجال إلى الأمام، وقال: «أنا فعلتها، ثم آخر، وواحد تلو الآخر قال كل رجل: «أنا فعلتها» وقال شيخ القرية أو الـ Patil: «كان واكير يتسبب في مضايقة الكثيرين من الناس في القرية؛ كما أساء معاملة هؤلاء الرجال الخمسة». فاحتجزت الشرطة الخمسة على الفور إلى جانب حماة بريمتشاند العجوز، واتهمتهم بارتكاب جريمة قتل. وفي إطار الأُسلوب المعهود في الهند، قامت الشرطة بجمع شهادات مكتوبة لأشخاص من خارج القرية لم يوجدوا في أي مكان قريب من مسرح الجريمة.

وجاء والد واكير ووجه الإهانات اللفظية لرجال القرية، وتوعد بالثأر لابنه.

عندما أُحيلت القضية إلى المحكمة عاد كل رجل في القرية فشهد ثانية بأنه هو الذي قتل واكير. وبرأ القاضي المتهمين الخمسة وأخلى سبيلهم، ورفض متابعة النظر في الدعوى، وبعد المحاكمة جاءت الشرطة إلى القرية، وقالت للرجال: «إن ما لم نتمكن من فعله، أنتم فعلتموه» وذكر القرويون في دادهام أنه عندما علم جيران واكير بأنه قتل قاموا بتوزيع الحلوى في الشوارع.

قمنا بزيارة عدة قرى أخرى. وكان مشهد الفقر المُدقع واضحاً في كل مكان: أطفال حفاة يرتدون أسمالاً، وشعرهم أشعث متلبد، ومجارير مفتوحة وأسرّة ركائزها مكسورة تتقاسمها عائلات كلها، ولحافات قديمة متسخة رقيقة، وجدران متفتتة مغطاة بأقمشة من

مادة البلاستيك. كان الناس بالكاد يصمدون. وقد توسلوا إلينا لنساعدهم. هل بمقدورنا أن نحصل على وظيفة لأحد أفراد الأسرة؟ هل بمقدورنا أن نساعد في تسريع عملية الانفاق الحكومي؟ هل بمقدورنا أن نحصل لهم على قرض؟

وفي قرية بارشي تاكلي دخلنا بيتاً وضيعاً متصدّعاً عبارة عن زريبة مكشوفة نصف معرضة للعوامل الجوية القاسية، أرضها قذرة و من دون أثاث عدا عن سريرين قديمين للأطفال. كانت هناك أم جالسة فوق أحدهما، ونادت على ابنها البالغ من العمر عشرين عاماً: «لقد أنهى الصف السابع. كان بطلاً في رياضة الكاراتيه في المدرسة.» قالتها بصوت أجشّ، وأرتنا صورة فوتوغرافية لابنها ذي الوجه الناعم الذي رحل الآن إلى الأبد؛ ولم أستطع التوقف عن التفكير في ابني المراهق، وشعرت بغصّة في قلبي». وأوضحت المرأة قائلة والدموع تنهمر من عينيها: «نحن نملك ثلاثة فدادين ونصف الفدان، وقد زرعناها بقصب السكر. فشحَّت الأمطار وجفَّ الزرع. وسألناها ما إذا كان عندها بئر لسقاية المزروعات فأجابت: «لدينا بئر ماء لكنه جف». ومثل كل شخص آخر، اقترضوا المال ولم يستطيعوا سداد الديون.

وقالت وهي تنتحب وتضغط بمنديلها على وجهها: «لقد أسرعنا به إلى المستشفى، وحاولوا بذل جهد كبير لإنقاذه. لقد حاولوا. كان الطبيب رجلاً ماهراً لكنه لم يتمكن من إنقاذ حياة ابني». أعطيت هذه المرأة بعض النقود. وشعرت أنني عاجزة جداً أمام حزنها وأمام عَوَزِها وحاجتها. وكنت أعلم أن النقود سوف تعينها مدة أسبوعين فقط، وربما مدة أشهر، ولكنها كانت كل ما أملك أن أفعله آنذاك، وهناك في تلك البقعة.

وصلت إحدى الجارات لرؤيتنا. وأحضرت معها ابنها الحي لكنه كان يعاني من العجز، نيسار خان الذي يبلغ الثامنة عشرة من العمر. كان قد فقد جزءاً من ذراعه اليمنى في مطحنة الحبوب. قالت: إنه «كان يحصل على عشرين ألف روبية كتعويض من قبل رب العمل الذي كان يعمل لديه. وحدث ذلك قبل عامين وتساءلت: «هل تستطيعون مساعدته؟ هل بإمكانكم إيجاد وظيفة له؟ وقد وعدنا أن نجعله على اتصال مع «جايبور ليمب» Jaipur Limb، وهي مؤسسة خيرية ناجحة تنشط في تأمين الأطراف الصناعية للمحتاجين في إقليم راجستان.

وفي بلدة ساتارغاون، ذهبنا إلى بيت تشايا ساندیش شيرسات؛ امرأة جميلة في التاسعة عشرة من عمرها ترملت مؤخراً إثر انتحار زوجها. كانت تجلس على الأرض وتُرضع ابنها وهو في شهره الثاني. كانت قد ذهبت إلى بلدتها من أجل الولادة كما هي العادة في الهند، وأقدم زوجها على الانتحار في غيابها. «سألناها»: هل ذكر لك أنه كان يواجه مشكلات؟ فأجابت باحتشام، وهي تبعد بيدها بعض الذباب عن وجه الطفل ذي الملامح الدقيقة: «حاولت أن أسأله لكننا كنا متزوجين حديثاً فقط. وكان يعاني تراكم بعض الديون وقال لي: إن عملي كان أن أقلق بشأن الطهو وإعداد الطعام، وأن عمله لم يكن من شأني. فماذا بإمكاني أن أفعل؟ وكان والداها الطاعنان في السن يجلسان قريباً منها، وبدا أنهما ضائعان تماماً. وجُلت بنظري على كوخهم المؤلف من غرفة واحدة. كان هناك في الزاوية مزار لآمبيدكار وبوذا، وكانت هناك صور عائلية موضوعة ضمن إطارات على الحائط إلى جانب صورة كبيرة لبطلة التنس الهندية سانيا ميرزا، وصورة لممثلة السينما المعروفة راني ماكيرجي ترتدي سروايلَ مثيراً.

كان من الصعب ترك هؤلاء الناس فقط مع وعد بأننا سوف نكتب عما رأيناه. فهم يعيشون على الأرز المفتت، الذي يحصلون عليه من الحكومة مقابل روبيتين للكيلو الواحد، وهو الأرز نفسه الذي يطعمه المزارعون الأحسن حالاً لدجاجاتهم. وهم يأكلون العدس أحياناً. وإلا فإن هنالك الملح فقط، وفي بعض الأحيان القليل من البصل لإعطاء نكهة للأرز.

وكان أحد ضحايا حوادث الانتحار قد حاول أن يستعيض عن مزرعة الأسرة المتهاوية ببسطة صغيرة الحجم لبيع مُضغ ورق التنبول؛ وهي أكلة هندية شهية مصنوعة من توابل حلوة المذاق، وغالباً ما يتم خلطها مع جوزة ثمرة الكوثل وهي من شجر النخليات، ولفها داخل ورقة خضراء. وعندما فشل ذلك المشروع التجاري صب وقود الكيروسين على نفسه وأضرم فيها النار، وذلك قبل ستة أيام من وصولنا، وكان عمره ثلاثين عاماً. وعقب وفاته باعت الأسرة البسطة بثمن بخس مقابل ألف وخمس مئة روپية (زهاء 35 دولاراً). وقال لنا والده: إنه كان يمتلك ثلاثة فدادين، وأنه كان قد اقترض سبعة آلاف روپية لإعطائها إلى ابنه. وكان الابن قد اقترض أيضاً المال من المرابين.

وسألنا الأرملة: «ماذا ستفعلين الآن؟»

«سوف أعمل في الحقول. سوف أبيع جهدي».

«كم ستكسبين من المال».

«خمس وعشرون روبية في اليوم [ستون سنتاً]»

ونظرت إلى ابنتيها الصغيرتين وعمرهما ثلاثة عشر وأحد عشر عاماً. كانتا كلتاهما جميلتين بحق. ولمعت عيناها بدمع ترفض أن تذرفه. لابد أنها كانت في الثلاثين من عمرها، ولكنها كانت منهكة وبدت أكبر من سنها بعشرين عاماً.

وأبلغنا والد الضحية ماهاديو كيسان بينجاركار أنه كان يقوم بحصاد ما مجموعه ثلاثة قنطارات -القنطار هو مئة كيلو غرام أو 220 رطلاً- من القطن من فدادينه الثلاثة. وقال: إنه كان قد أنفق أربعمئة روبية ثمناً لكل علبة من البذور، وإن كل علبة كانت تغطي مساحة فدان ونصف الفدان، وبذلك يكون قد أنفق ما مجموعه ثمانمئة روبية على البذار. وكان قادراً على أن يدفع فقط ثمن استعمال المبيد الحشري لمرة واحدة، وقد كلفه خمسمئة روبية ولم ينقذ محصوله وبلغ ربحه الإجمالي ثلاثة آلاف وخمسمئة روبية أو (75) دولاراً. وقال لنا السيد كيسان: إنهم اعتادوا زراعة «السرغوم» وهو نبات يشبه الذرة، والخضراوات، ولكنهم يزرعون حالياً القطن فقط. وقد كان عليهم أن يشتروا طعامهم، وقال: إنه كان لديه بئر لكنه جف، وأن الجدول البياني للمياه قد انخفض بمقدار مئة قدم. وتبلغ تكاليف حفر بئر أعمق، مئة ألف روبية، وأنهم لم يكونوا يمتلكون المال حقيقة. وكان هناك صبي صغير في العائلة عمره زهاء خمس أو ست سنوات يركض في الجوار، وقد أثارت حماسته زيارتنا غير المعتادة إطلاقاً. كان يرتدي قميصاً أحمر ذا ياقة عالية، وعليه الشعار الرياضي لألبسة فيرساتشي.

المزارعون الذين التقينا بهم كانوا جميعهم مدينين بالمال، وكلهم يزرعون القطن. وكانوا جميعهم قد حاولوا زراعة القطن (Bt) الجديد المعدَّل وراثياً، سواء الذي تنتجه شركة مونسانتو وشريكتها الهندية «مايكو» Mahyco، التي تقع مكاتبها الرئيسة في ولاية ماهارشترا؛ وهو صنف مسجل تحت العلامة التجارية «بولغارد» (Bollgard) أو زراعة صنف هندي أرخص. كانت هناك كل أنواع البذور التي يمكن للمزارع أن يختار من بينها: بذور هجينة مختلفة، بذور معدلة وراثياً بشكل قانوني، وبذور غير قانونية بأسعار رخيصة. وحملت

البذور المعدلة وراثياً، المورثة أو الجين Baeillus Thuringiensis وهي بكتيريا سامة لأنواع كثيرة من الحشرات، بما فيها خنفساء القطن. ويشار إليها عموماً باسم قطن (Bt). ولا تزال فاعلية القطن (Bt) في مقاومة الحشرات الضارة موضع جدل، حيث تتفق معظم الآراء بأن هذا الصنف من القطن لا يلغي الحاجة إلى المبيدات الحشرية مع أنه قد يقلل منها. ويعرب أصحاب الآراء المعارضة عن قلقهم بأن النباتات المعدلة وراثياً ربما تلوث التربة، وتنشر مورثاتها المتغيرة جينياً فوق نباتات أخرى، وتؤدي بذلك إلى عملية تحول لا يمكن السيطرة عليها أو ضبطها. كما وُجهت انتقادات إلى القطن من صنف (Bt) بسبب سُميته التي تؤثر في نطاق واسع من الحشرات، بما فيها الحشرات المفيدة. وتباع بذور «بولغارد» التي تنتجها شركة مونسانتو مقابل 1,850 روپية للعلبة الواحدة، وهذا يزيد كثيراً عن سعر البذور الهجينة العادية، ويفوق السعر المحدد للبذور الهندية المعدلة وراثياً.

وكان المزارعون عادة ما يدَّخرون جزءاً من بذارهم لزراعته في السنة القادمة، غير أن البذور المعدلة وراثياً مسجلة بموجب براءة اختراع، وليس من المسموح للمزارعين إعادة إنتاجها.

في شهر آب «أغسطس» من عام 2006، أعلنت شركة مونسانتو: أنها سوف تتولى إدارة شركة «دلتا وباين لاند»، الشركة التي أَنجزت إنتاج ما يسمى بالبذور القاضية. والبذور القاضية مبرمجة وراثياً لإنتاج بذور معقمة في النبتة التي تنمو منها، بحيث لا يكون بالإمكان تخزين وزراعة الجيل اللاحق من البذور. ويجب على المزارع أن يبتاع بذوراً جديدة من الشركة كل سنة. وقال هيوغرانت المدير التنفيذي المسؤول لشركة مونسانتو في تعليقه على هذا الكسب: «إن شركة دلتا وباين لاند تمثل توافقاً ممتازاً لشركتنا، في حين نتطلع إلى جلب مزايا ذات قيمة إضافية وبذار من النوعية العالية إلى مزارعي القطن حول العالم»[3]

كان العديد من المزارعين الذين التقيناهم قد بدؤوا رحلتهم مع الديون مع بنك للتسليف أو بقرض من أحد المرابين لزراعة المحصول الأول للقطن من صنف (Bt). وقد اعتقدوا أن هذا الصنف سوف يعود عليهم بإيرادات أفضل. ففشل محصولهم الأول. ولم تكن هناك من مياه كافية أو أن هطل الأمطار لم يحصل في الوقت الملائم للمزروعات. وتحول لون النباتات إلى الأحمر مع إصابتها بمرض Lalia، الذي ليس لأصناف القطن من نوع (Bt)

أية وقاية منه. ومع وقوعهم في الدين بعدما خسروا محصولهم الأول من قطن (Bt)، أقدم المزارعون على مجازفة أكبر وحاولوا ثانية. ولم يكن بإمكان محصول من القطن العادي أن ينقذهم، ولذا فقد شعروا أنه من الأفضل أن يقامروا وأن يأملوا بمحصول وافر. وفشلت زراعة المحصول الثاني أو أدت إلى إعطاء نتائج رديئة. وحاول البعض للمرة الثالثة، وأقدم البعض الآخر على قتل نفسه.

بدا واضحاً استناداً إلى العدد الضئيل من المجتمعات المحلية الزراعية التي زرناها أن مزارعي المناطق الجافة الذين يظل إنتاجهم محدوداً لن يكونوا قادرين أبداً على العيش، وهم يزرعون المحاصيل النقدية. فهم لم يكونوا يمتلكون المال اللازم للأسمدة والمبيدات الحشرية التي تتطلبها هذه المحاصيل. ولم يكن أمامهم من وسيلة لري حقولهم، ولذا فإذا ما شحت الأمطار أو هطلت في الوقت الخطأ، كان في ذلك هلاكهم.

من المستحيل تقريباً بالنسبة لصغار المزارعين في الهند الاقتراض من المصارف. فحجم القروض التي يحتاجونها لا تثير اهتمام المصارف. كما تطلب منهم المصارف إحضار شهادة من كل بنك آخر في المنطقة تثبت أنه ليس هناك ديون في ذمتهم، قبل أن يقوم مصرف ما بإقراضهم. ولا يستطيع المزارعون أن يفعلوا ذلك في الواقع. فهم لا يعرفون موقع كل البنوك أو لا يمتلكون الوسيلة للتنقل أو الوقت الكافي للذهاب هنا وهناك، وزيارتها جميعها. وهم غالباً ما يقترضون من أجل دفع تكاليف احتفال ديني أو مناسبة زواج في العائلة، والبنوك لن تُقرض المال من أجل ذلك. ولذا فهم يتحولون إلى المرابين الخاصين الذين يفرضون فوائد مالية فاحشة.

ذهبنا للتحدث إلى مادهو جادهاف، وهو صحفي متدرب من مكتب صحيفة «داينيك بهاسكار» في آكولا، ثاني أكبر صحيفة تصدر باللغة الهندية في الهند. كان المكتب يقع في شقة صغيرة في الطابق الثاني من مبنى سكني في حي هادئ. وقد أبلغنا أن معظم المرابين هم أنفسهم مزارعون، لكنهم مزارعون أحسن حالاً، ويمتلكون حقولاً أكبر. وهم يأخذون صك الملكية الخاص بأرض المدين باعتباره ضمانة إضافية. والشرفاء منهم يعيدونه عندما يتم سداد الدين. أما الآخرون الأقل نزاهة فيحتفظون بالصك؛ وليس هناك من شيء يمكن لصغار المزارعين أن يفعلوه إزاء ذلك بما أنه لم يكن هناك أي عقد مكتوب، ومعظمهم

أميون. وبهذه الطريقة يقوم كبار المزارعين بتوسيع قبضتهم على عقارات الأراضي. وقال جادهاف أيضاً: إن الكثيرين من ضحايا حوادث الانتحار هم من المدمنين على الكحول أو لعب القمار. وهو يقول إن أولئك الذين يكدحون ويعملون بجد يحققون نتائج إيجابية إلا أن الناس في المنطقة «كسالى».

وأشار كمثال مناقض، إلى أن الرعاة الذين يعملون لصالح شركة «كاثياواري» الصناعية يسوقون قطعان مواشيهم على طول الطريق من غوجارات إلى ڤيداربها، لتأتي على مخلفات الجذوع المتروكة في الحقول بعد عملية الحصاد. وهم يجلبون بقراتهم كل يوم، يبيعون الحليب، ويجنون كمية من المال قبل عودتهم إلى البيت في نهاية الموسم. «كان هناك مؤخراً مطر غزير رافقه هطل وابل من حبات البرَد. وكان بصحبة العاملين لدى شركة كاثياواري عدد قليل من الأطفال، وكان الناس يعرضون عليهم المأوى، غير أنهم كانوا يرفضون قائلين: «إذا مات ابني لا بأس، لكنني لن أدع ماشيتي تموت». ومكثوا هناك في العراء مع ماشيتهم. وقد أوليت اهتماماً خاصاً لهذه القصة، لأن أصول عائلتي من منطقة «كاثياوار»، لكنني لم أفصح عن هذا الأمر.

تتصف حياة الرعي والزراعة في الهند بالقسوة والخشونة، وهي محفوفة بالمخاطر. ويدرك الشباب في القرى أن الهنود الذين يقطنون المدن ممن هم في سنهم يعيشون حياة مختلفة جداً. وقد جعل التلفاز الهنود من أبناء الريف على اطلاع على الحياة في المدن، وحتى الحياة في البلاد الأخرى. وقال جاهداف: «لقد تغيرت الثقافة كثيراً بسبب التلفاز. وتتمثل نوعية البيئة الجديدة في أن الشباب لا يريد امتهان العمل في الزراعة، وحتى لو كان المزارعون يحققون نجاحاً في عملهم، فإن من المحتمل أن البعض من الجيل الأصغر لن يرغب في مزاولة الأعمال الزراعية. وبالنظر إلى الظروف البائسة للمزارعين الذين قمنا بزيارتهم، فليس من المستغرب أن عدداً كبيراً من الشباب -في سن التاسعة عشرة أو العشرين من العمر- قرروا أن شقاءهم، وبالمقارنة مع أساليب الحياة ذات الدوافع الاستهلاكية والنجاحات العملية الكبيرة التي يرون هنود المدن الأثرياء يستمتعون بها على شاشة التلفاز، كان ببساطة محزناً جداً بشكل لا يطاق.

وأثناء مرورنا بمدينة آمراڤاتي، وقد كانت مركزاً لزراعة القطن لمدة طويلة، صادفنا جبالاً من القطن الأبيض المنفوش بانتظار عملية حلجه قرب محلجة للقطن. ودخلنا إلى مجمع البناء مروراً بأكوام من القطن باتجاه بيت صغير مؤلف من طابق واحد مبني وفق النمط العمراني الذي كان قائماً في العشرينيات وله شرفة واسعة، وذلك للقاء المالك، زوبين دوتيوالا.. كان البيت يقع وسط حديقة جميلة تحجب عمليات معالجة وتصنيع القطن. ورحب بنا السيد دوتيوالا في منزله، وكان سعيداً بإشراكنا في سرد تفاصيل مسيرة حياته وعمله في مهنة حلج القطن. وجلسنا في غرفة الجلوس حيث كان هناك جهاز ضخم لتبريد المياه، جعل الغرفة مريحة بشكل مقبول. وأبلغنا أن الألعاب المبعثرة فيها كانت تخص ابنته البالغة من العمر خمس سنوات، وقد أخذتها أمها لممارسة رياضة السباحة. وبعدما كنا قد رأيناه، بدأ أمراً رائعاً أن يوجد في مكان ما قريب، بركة سباحة بلون زرقة السماء فيها مياه نظيفة منعشة ومضافة إليها مادة الكلور.

كانت محلجة القطن من أملاك عائلة دوتيوالا لخمسة أجيال متعاقبة. وكانت تدار أصلاً بآلة مصنوعة من الحديد الثقيل تعمل على البخار وجرى تركيبها من قبل البريطانيين، وقام السيد دوتيوالا بتحديثها منذ ذلك الوقت. وقد أبلغنا أن باقي أفراد عائلته موجودون في بومباي حالياً، وهم يستمرون في القول له أن يترك مهنة القطن القديمة، ويأتي إلى المدينة «لكنني سعيد تماماً بالقيام بهذا العمل» حسب تأكيده.

ويعمل دوتيوالا وسيطاً. يشتري القطن الخام من المزارعين ثم يقوم بحلجه لفصل المادة الليفية عن البذور. وهو يبيع أكياس القطن المحلوج إلى الوكلاء الذين يأخذون القطن إلى مدينة بومباي أو مدينة كوامباتور. وتباع البذور لاستخراج الزيت. وهو يدفع النقود للمزارعين الذين يجلبون له القطن حسب طول التيلة وحجم مقطع النسيج القطني. وكذلك حسب كمية التلف المخلوط مع النسل، كما تسمى الألياف البيضاء. «إنني أدفع ما بين ألف وتسعمئة روپية إلى ألفي روپية لكل قنطار حسب النوعية. وتدفع الحكومة ألفاً وسبعمئة روپية. وكانت الحكومة تدفع في السابق، وقبل تقليص إجراءات دعم الأسعار مبلغاً مثيراً للسخرية يتراوح ما بين ألفين وخمسمئة إلى ألفين وسبعمئة روپية لكل قنطار، وفي ولاية ماهاراشترا فقط. ولم يكن الأمر مقبولاً لكن المزارعين تعوّدوه ولذا فإنهم يعانون الآن.

وقال: إن القطن من صنف (Bt) كان متفوقاً على كل ما عداه مع تميزه بنوعية محسنة ومحصول ذي مردود أفضل. ولكنه أقر بأن صغار المزارعين في المناطق الجافة لا يمكنهم أن يوفقوا في تحقيق نتائج إيجابية ملموسة بزراعة القطن من صنف (Bt): «إن أولئك المزارعين الذين تتوافر لديهم إمكانية الحصول على التربة الصالحة والمياه والجهد الكافي يبلون بلاء حسناً. أما صغار المزارعين فيمنون بالفشل. ومحاصيلهم محكوم عليها بالهلاك الأمر الذي يدفعهم إلى الانتحار. كما أبلغنا» أن القطن هنا لا يمكنه مضاهاة قطن ولاية غوجارات؛ فطوال هذه السنين أدت خطة حكومة مهاراشترا إلى الإبقاء على إجراءات غير فاعلة ولا جدوى منها مع الافتقار للكفايات. وصغار الفلاحين هنا غير متعلمين، وليست هناك من وسيلة تجعلهم قادرين على المنافسة».

وبينما كنا نتكلم مرت بنا عربات تجرها ثيران مخصية تعلوها أكداس من القطن، في حين كانت تنقل القطن حول المُجمع. وقد أخبرته عن الحالات التي أطلعنا عليها والأوضاع التي كنا لمسناها في القرى. فرد قائلاً وهو يهز كتفيه دون اكتراث: «إنهم أشبه بالجراء».

ودعانا للقاء بعض المزارعين الذين كان يعرفهم، وكانوا يحققون مردوداً مناسباً، قائلاً: «بإمكانهم أن يخبروكي عن أشياء كثيرة». كان أحدهم قد تعرض لحادث أدى إلى إصابته إثر ارتطامه بإحدى المعدات الموجودة على أرضه، وكان موجوداً في مشفى محلي في البلدة بانتظار إجراء عملية جراحية في ساقه. وأجرى السيد دوتيوالا اتصالاً هاتفياً ثم أغلق السماعة، وقال لنا: إن باستطاعتنا، إذا كانت تلك رغبتنا، التوجه للاجتماع بالمزارعين في حينه.

وتكومنا في سيارتنا وهي سيارة بيضاء اللون من طراز «Tata India»، وانطلقنا إلى المستشفى. كان مشفى خاصاً ونظيفاً، ومن الواضح أنه كان مجهزاً بشكل جيد. كان المزارعون في الطابق الثالث متجمعين في غرفة الرجل المصاب. كان هنالك اثنان من إخوته، بوروشوتام لادا واومبراكاش لادا وصديق لهما اسمه جوغال كيشور راثي. وكان هؤلاء الرجال أكبر جسدياً من المزارعين المساكين الذين كنا قد رأيناهم في القرى المعدمة. وكانوا متعلمين. كان أبناء الرجل المصاب موجودين هناك، هارش لادا، وعمره سبعة وعشرون عاماً وهو الذي كان يتولى إدارة أمور المزرعة، وڤيبور لادا وعمره أربعة وعشرون عاماً وهو الأخ الأصغر الذي عمل لصالح مصرف ICICI موظفاً في قسم التأمينات. كان كلاهما

متعلمين، يرتديان ثياباً مرتبة، ويتحدثان اللغة الإنكليزية بطلاقة. وجاءت أمهما وقدمت لنا الشاي. وكانت هي أيضاً ترتدي ثياباً أنيقة. كانوا قد هاجروا إلى ماهاراشترا من إقليم البنجاب قبل ثلاثة أجيال وكان من الواضح أنهم قد حققوا إنجازات في عملهم وحالفهم التوفيق؛ وقد أبلغونا أنهم كانوا يزرعون القطن، والقمح، والعدس، وقصب السكر و القرطم (العصفر) وأزهار دوار الشمس. وكان كل واحد منهم يزرع زهاء ستمئة فدان، وهي أكبر بمئتي أو ثلاثمئة مرة من مساحة الأراضي التي يمتلكها ضحايا حوادث الانتحار.

وقد ألقوا باللائمة في حوادث الانتحار على شرب الكحول ولعب القمار. وكانوا يعتقدون أن صغار المزارعين أصبحوا كسالى، يعتمدون على أموال الدعم الحكومي للأسعار بحيث إنه عندما جرى سحبها لم يستطيعوا التكيف مع الوضع. غير أنهم اعترفوا أيضاً بأن المنافسة تشتد وأن النزعة السائدة كانت تسير باتجاه إقامة مزارع أكبر فأكبر. وقال كيشور راثي «المشكلة تكمن في المياه. فهناك إما أمطار غير كافية أو أن المطر يهطل في الوقت الخاطئ». وكان أومراكاش لادا مصراً على أن القطن من صنف (Bt) لم يكن هو المسؤول، فقد حصلنا على ثمانية إلى عشرة قنطارات لكل فدان بزراعة الصنف (Bt) من القطن، وثلاثة إلى أربعة قنطارات فقط بزراعة الصنف الآخر». وقد أتيت على ذكر الرجل الذي التقيناه، والذي حصل على قنطار واحد من القطن لكل فدان. فأقروا بأنهم كانوا يحصلون على الوسائل اللازمة لري مزروعاتهم وأن هذا الأمر هو الذي أحدث كل هذا الفارق. كان بإمكانهم إيصال المقدار اللازم من المياه إلى المزروعات في الوقت المناسب من دورة حياة النبتة. وكانوا يحاولون إقامة نظام الري بالتنقيط، لكنهم ذكروا أن البنوك لم تكن لتقرض المال لهذا الغرض. وقال هارش لادا: إنه «حيثما قدمت الحكومة المساعدة في عملية الري، ارتفع الإنتاج. وقد وضعوا موضع التنفيذ بعض الخطط من أجل تجميع مياه الأمطار، ولكن الهطل نفسه كان قليلاً جداً فلم يُحدث أي فرق». وجادل دوتيوالا وبوروشوتام لادا بأنه كان يجب على المزارعين أن يكونوا حذرين في موضوع السقاية: ففي ولايتي البنجاب وهاريانا، أدت المياه ذات النوعية الرديئة والاستخدام المفرط للسماد إلى إنهاك التربة».

وكان هارش واثقاً بأن المزارعين سوف يربحون أكثر إذا ما تضامنوا مع بعضهم، ووافقه الرأي جوغال راثي قائلاً: «إن تقطيع الأراضي إلى مزارع أصغر فأصغر، أدى إلى تقليص

الإنتاج، وسيؤدي دمج الأراضي إلى زيادته». وأجرى هؤلاء المزارعون في الحقيقة النقاش ذاته الذي يجريه دائماً الأمريكيون من أصحاب المصالح في حقل المشروعات الزراعية الكبرى وغيرها من الشركات الزراعية، بشأن الحجم والفاعلية.

إلا أن الأغلبية العظمى من مزارعي الهند هم من صغار الملاك الذين يمتلكون ما بين فدان وخمسة فدادين من الأرض. وليست لديهم أي مهارات أو ثقافة تمكنهم من الترويج لمنتجاتهم وإقناع الآخرين بها في ساحة سوق العمل في المدن. وعندما يجبرون على ترك أراضيهم، ينتهي بهم المقام في أحياء المدن الشعبية الفقيرة أو عمالاً مهاجرين. وكانت تقديرات الخبيرين في علم الاجتماع مادهاف غادجيل وراما تشاندرغوا تشير قبل عشر سنوات، إلى وجود مئات الملايين ممن يسميانهم اللاجئين البيئيين في الهند -ثلث عدد سكان البلاد بأكمله- الذين أرغموا على ترك مزارع أجدادهم أو مناطق الغابات. أما وقد دفعوا للرحيل نتيجة لبناء السدود، وتحويل مجاري المياه، وإزالة الأشجار والحراج، وفشل المحاصيل النقدية أو غيرها من أشكال استنزاف الموارد، التي جعلت من المستحيل البقاء على قيد الحياة في بيوتهم الريفية، فقد انتهى هؤلاء الناس لاجئين في الداخل يعيشون على هامش مراكز الاستهلاك الحضرية أو مهاجرين دائمي الترحال والتنقل، بحثاً عن قليل من العمل، وقليل من الطعام[4]. وفي طريقنا إلى نيابور لنستقل الطائرة عائدين إلى بومباي، التقيت أنا وديليب مع جايديب هارديكار مرة ثانية. قال لنا: إن أحياء السكن العشوائي الفقيرة في نيابور تكبر بنسبة عشرة بالمئة كل عام، وأن ثمانية آلاف شخص يعيشون في هذه الأحياء، وأن الكثيرين منهم كانوا مزارعين نازحين.

في الثلاثين من حزيران « يونيو » عام 2006. قام مانموهان سينغ رئيس الوزراء الهندي بزيارة إلى قيداربها. وكانت أزمة حوادث انتحار المزارعين قد أصبحت موضوعاً بارزاً في التقارير الأخبارية على مستوى البلاد، مع ورود تقارير جديدة عن حدوث وفيات كل أسبوع تقريباً. ومخاطباً المزارعين الذين يعانون وطأة الوضع الاقتصادي، أكد لهم رئيس الوزراء: «إنني جئت إلى هنا لأطّلع على محنتكم. أنا أعرف مدى الألم الذي تكابدونه. وسوف أرى ماذا يجب فعله للحيلولة دون حصول مثل هذه الأزمة في المستقبل[5]. ووعد السيد سينغ بإعفاء المزارعين من جميع الفوائد المستحقة على قروض المصارف في المناطق الست الأكثر

تضرراً جاعلاً المزارعين مؤهلين للحصول على قروض جديدة. كما تعهد بتخصيص أموال لعمليات الإغاثة الطارئة الفورية، وبالتحقيق في أسباب عدم تنفيذ مشروعات الري. وقال أيضاً: إنه «كان مدركاً للحاجة إلى الابتعاد عن المحاصيل النقدية»، ووعد بالمساعدة على إيجاد موارد دخل موازية للمزارعين[6].

في شهر تشرين الثاني الماضي عقدت أكبر جماعة مناصرة للمزارعين في الهند، تدعى «جماعة كيسان سبها لعموم الهند» (AIKS The All India Kissan Sabha) مهرجاناً كبيراً في مدينة نيودلهي. وتجمع الآلاف من العمال من مختلف الولايات الهندية من أجل مطالبة الحكومة، بمعالجة الأزمة الزراعية في البلاد. وكانت إحدى مطالبهم إجراء إحصاء رسمي لحوادث الانتحار بين المزارعين. وتبنى القضية مختلف الأحزاب السياسية، وكان من المتوقع ان تحتل حيزاً مهماً من جدول أعمال الدورة الشتوية للبرلمان الهندي لعام 2006.

أزمة المياه في الهند

مع تزايد عدد السكان بمقدار ثمانية عشر مليون نسمة كل عام وتحقيق نمو اقتصادي قوي، تمر الهند الآن بأزمة مياه حادة تهدد بأن تصبح أسوأ كثيراً. ويتوقع استناداً إلى دراسة للوضع أجراها البنك الدولي، أن يتضاعف استخدام مياه المنازل في المناطق الحضرية للهند بحلول عام (2025)[7]. كذلك تعني الخطط الموضوعة لإحداث تحول في النهج الذي تتبعه الهند في الزراعة، بالتأكيد، استخدام كميات أكبر من المياه في المناطق الريفية للبلاد. وقد علق أصحاب المصالح الصناعية والشركات الزراعية المتنفذة في المدن في نزاع على المياه مع صغار المزارعين والسكان القبليين أدى إلى وقوع مواجهات عنيفة شملت كل المناطق، وكانت رؤية جواهرلال نهرو لتحديث بلاده في منتصف القرن العشرين قد انطوت على بناء سدود كبيرة أسماها «معابد الهند الحديثة». وكان مئات الآلاف من المزارعين الهنود والقبليين قد نزحوا عن أراضيهم بسبب مشروعات السدود التي أقيمت في كل أنحاء البلاد بما فيها سد «ساردار ساروفار» على نهر «نارمادا» في ولاية غوجارات. وحقق هؤلاء الأشخاص الذين أرغموا على الرحيل القليل من التعويض إن كان هناك من تعويض، والقليل من المساعدة الموعودة لإعادة إسكانهم في مناطق جديدة. وكان نجم بوليوود المحبوب آميرخان قد تصدر

عناوين نشرات الأخبار عندما احتج بصورة مثيرة للجدل على نقص التعويض الكافي للناس، الذين جرى ترحيلهم مع بدء العمل بإنشاء سد «ساردار ساروڤار». ولقيت أفلامه مقاطعة من جانب مواطني ولاية غوجارات من سكان المدن، الذين يرون في السدود ضرورة لتقدم الولاية، كما حظر عرضها من قبل حكومة الولاية الملتزمة كلياً بأصحاب المصالح الناشطين في المجالات العمرانية والصناعية والزراعية القائمة على نطاق واسع.

إن إقامة السدود على نهر نارمادا، ولا سيما بناء سد «ساردار ساروڤار» هو أكثر مشروع سدود إثارة للجدل في الهند. فقد احتج المؤلف والناشط ارونداتي روي على نحو صارخ ضد بناء السد، وألف كتاباً عنه بعنوان «ثمن المعيشة»، كما كتب ديليب داسوزا كتاباً آخر عن الموضوع عنوانه «نارمادا الملعون». وناضل ميدا باتكار، الذي يعد وبصورة كبيرة أكثر ناشطاً اجتماعياً في الهند المعاصرة التزاماً بتعاليم غاندي، ناضل ضد إقامة السد لسنوات عديدة وقاد حركة أطلق عليها اسم «حركة انقاذ النارمادا» وهي تلفظ بالهندية Narmada Bachao Andolan وتعرف بالأحرف الأولى (NBA). وقد نجحت الحركة في تأخير المشروع لكنها لم تفلح في منع تنفيذ إقامة السد الذي ازداد ارتفاعه من (88) متراً في عام (1999). إلى (121.92) متراً في عام (2006)، عقب سلسلة من القرارات اتخذتها المحكمة العليا في الهند تجيز إضافة زيادات تدريجية في الارتفاع. ومع كل زيادة كانت هناك مساحة أوسع خلف السد تتعرض للفيضان وتغرق عدداً متزايداً دائماً من القرى والمعابد والأراضي الزراعية والغابات. وتم ترحيل 320,000 شخص بسبب السد. وقضت أعداد كبيرة من الناس أثناء عملية بنائه، ومات أيضاً مئات آخرون بسبب الضغوط التي تعرضوا لها نتيجة ترحيلهم وإعادة إسكانهم في مناطق جديدة ضد رغبتهم. وأوشك ميدا باتكار على الموت عدة مرات: إما عبر الإضراب عن الطعام أو لرفضه الانتقال من المنطقة مع تزايد ارتفاع منسوب المياه.

نادراً مايكون النزاع الحاد على نهر نارمادا الجدال الوحيد القائم بشأن المياه في الهند. فقد انشغلت ولايتا كارناتاكا وتاميل نادو في نزاعات حادة على حقهما في مياه نهر كوڤري. ولدى الحكومة الهندية مشروع طموح جداً –البعض سيقول أنه يشكل مفخرة ويدعو للاعتزاز الشديد، وآخرون سيقولون: إنه مشروع أحمق تماماً– لربط كل أنهار البلاد عبر نظام من القنوات. ويعرف المشروع باسم مشروع «ربط الأنهار». وقد لقي معارضة من جماعات

الحفاظ على البيئة بوصفه عملاً من الأعمال البيئية الأشد حماقة والأشد خطورة، الذي سيدمر نظام الطبيعة القائم على ضفاف الأنهار في الهند. ووقعت بلدية مدينة نيودلهي عقداً مع شركة «ديغريمون» Degrémont، وهي فرع من شركة المياه الفرنسية العملاقة «سويز» Suez لنقل المياه من قناة غانغا العليا المتفرعة عن مشروع سد تيهري Tehri في ولاية أوتار براديش عبرخلال مصنع جديد لمعالجة المياه في سونيا ڤيهار، لإرواء سكان المدينة في جنوب وشرقي دلهي. وقد احتج المزارعون الذين يعتمدون على هذه المياه لري مزروعاتهم وبقوة على المشروع مؤكدين أنه لن يترك لهم سوى كمية قليلة من المياه. ويضمن مصنع سونيا ڤيهار لشركة سويز عشر سنوات من الأرباح المتواصلة. وتزود الحكومة الشركة بالأرض والكهرباء، وتكاليف عملية المعالجة ذاتها التي تصل إلى مايوازي أربعمئة مليون روپية أو زهاء (45) مليون دولار لإيصال المزيد من المياه إلى سكان دلهي العطشى.

تعد خصخصة قطاع المياه اتجاهاً عالمياً سائداً. ويقدر البنك الدولي أن عملية خصخصة المياه هي تجارة تساوي ما يمكن أن يصل إلى تريليون دولار، و بما أن الغالبية العظمى من شعوب العالم لا يشترون مياههم من مصادر خاصة في الوقت الحاضر. ويظهر البنك الدولي في تقرير مهم حول الأزمة المائية في الهند تحت عنوان «الاقتصاد المائي للهند: الاستعداد لمستقبل مضطرب» يظهر تحيزاً باتجاه عملية الخصخصة بشكل عام، وخصخصة المياه بشكل خاص، مؤكداً أن «الدولة بحاجة إلى تسليم تلك المهام التي لا تحتاج إلى أدائها، وإلى إيجاد المقدرة على القيام بأمور كثيرة بإمكان الدول فقط أن تقوم بها. ولا بد من إدخال المنافسة في سياق توفير خدمات المياه العامة الأساسية.[8] وتسيطر ثلاث شركات ضخمة تقيم مصالح لها في دول عدة على (40) بالمئة من السوق المائية الخاصة للعالم: بيكتل Bechtel، سويز Suez، وڤيڤندي Vivendi. وتلتحق شركات مهمة أصغر بالباقين بأية طريقة، في حين تزداد الإمكانية الربحية للسوق فيما يعرف بعمليات «الذهب الأزرق» الذي تقدر قيمته الآن بحدود 400 مليار دولار.

ويشكل النمو السكاني، والتوسع العمراني والتحول المخطط للاقتصاد الزراعي للبلاد وفق النموذج التجاري – الزراعي الموجه للتصدير، مجرد بعض العوامل التي تسهم في أزمة المياه المتفاقمة في الهند. وتوفر المياه الجوفية (80) بالمئة من الحاجات الداخلية للريف

الهندي و(50) بالمئة من الحاجات الداخلية للمدن[9]. وتستمر الجداول البيانية للمياه بالهبوط في حين يجري استنزاف المكامن المائية بشكل أسرع من إمكانية إعادة تعبئتها. والكثير منها ملوث بمواد عالية السمية، وتكلف إزالتها مبالغ مكلفة جداً بالنسبة لدولة نامية كالهند. كما انخفضت مؤشرات الجداول البيانية للمياه في بعض مناطق الهند بما يصل إلى (70) بالمئة. وأكد لي العديد من أسر ضحايا حوادث الانتحار ممن أجريت معهم مقابلات في قيداربها بأنهم كانوا يمتلكون آباراً بالفعل، فإن هذه الآبار كانت قد جفت ولم يكونوا يملكون المال ليقوموا بأعمال الحفر إلى العمق المطلوب حالياً لاستخراج المياه.

إنقاذ المياه، إنقاذ المجتمعات

نيروبا بهانجار امرأة في الخمسين من عمرها كلها حيوية، تتمتع بثقة ورباطة جأش وذات نظرة معبرة متألقة. وكانت مهتمة بدورها بأزمة المياه في الهند على مدى سنوات. وهي مُدرسة سابقة في علم الأحياء المجهري، وتحولت إلى مديرة مدرسة ثم عملت لصالح شبكة الآغا خان منذ عام (1987). وحتى عام (1993). وعملت لاحقاً مع شركة Ion Exchange India «ايون اكستشينج انديا» وهي شركة رائدة في مجال معالجة المياه، وذلك بصفة مستشارة لمشروع إنشاء نواتهم الريفية. وقد غيرت التجربة من نظرتها إلى الأمور. فقد اكتشفت أثناء عملها في القرى في ريف ولاية غوجارات أن أعداداً هائلة من القرويين كانوا مصابين بتسمم حاد بالفلوراين، وهو تسمم ينجم عن وجود كميات كبيرة جداً من مادة الفلور في مياههم. وقالت لي: كان المؤشر البياني للمياه قد هبط بمقدار ثمانين بالمئة، وكان الفلور الموجود بشكل طبيعي قد بات مركزاً. لم تكن هناك مياه جديدة تتسرب داخل التربة لإعادة تعبئة المكامن المائية الجوفية. كان الناس يعانون كثيراً المرض ولم يكونوا قادرين على الوقوف على أقدامهم من دون مساعدة. وتعيش نيروبا عند واجهة وورلي البحرية في بومباي في أحد الطوابق العالية التي تتمتع بمنظر عام لبحر العرب، لايحجبه شيء. وقد جلسنا على حصير من القش في غرفة نومها التي تستعمل كغرفة مكتب أيضاً. وكنت أستطيع أن أرى جيداً مسافة بعيدة من البحر، وبعيدة بما فيه الكفاية لكي ألحظ وجود خط واضح يفصل المياه ذات اللون البني الداكن والملوثة للغاية القريبة من الشاطئ، عن المياه الملونة، بصورة طبيعية أكثر، باللون الأزرق الفولاذي التي تموج على مسافة أبعد.

قالت لي نيروپا: إن 25 مليون شخص معرضون للتسمم بمادة الفلور «الذي يُصفي الكالسيوم من عظام الناس. وفي محيط مدينة أحمدأباد مثلاً، حيث يعيش الناس حياة أفضل، ويتوافر كلس أكثر في نظامهم الغذائي، لا يتأثر هؤلاء بشدة كما هو الحال في مناطق أخرى، حيث لا يملك الناس أكل منتجات الألبان». وتحدثت نيروپا عن المشكلات الأخرى الموجودة في مخزون المياه الجوفية في الهند: الزرنيخ والحديد. «لقد باتت الأمور أسوأ منذ الاستقلال، حيث تتزايد كميات المياه التي يجري تحويلها إلى المدن إما بشكل مباشر من أجل مياه الشرب، أو بشكل غير مباشر عبر المنتجات الخاصة بالأسواق الحضرية التي تحتاج إلى المياه بشكل مكثف من أجل إنتاجها». وأتت نيروپا على ذكر مشكلات المياه الجوفية التي نشأت في جوار مصانع كوكاكولا في ولايتي كيرالا واندرا براديش.

وانطلاقاً من رغبتها في عمل شيء ما يكون فاعلاً في معالجة أزمة المياه التي يعانيها الريف الهندي، قامت نيروپا بالسفر إلى منطقة كاتش والمناطق المحيطة بولاية مهاراشترا، فزارت الأماكن التي تبذل فيها مساعٍ حثيثة للمحافظة على مياه الأمطار وتجميعها، وحاولت فهم أيها حققت نتائج (فاعلة وأيها أخفقت. وكانت متأثرة بشكل خاص بزيارتها إلى ريليغاون سيدهي، وهي قرية شهدت تحولات رائعة على يد الابن المنتمي والناشط الاجتماعي آنا هازير. فبلجوئه إلى إشراك القرويين في بناء سلسلة من السدود الترابية، وسدود التقطير وغيرها من إجراءات تجميع المياه، كان آنا هازير قد أفلح في رفع البيانات المائية وضمان توفر المياه الكافية للشرب والري. فتحولت ريلغاون سيدهي من مكان مجدب قاحل يخلو من أي نشاطات حيوية في السبعينيات تغطي فيه أكشاك بيع الكحول غير المشروع على بضائع أهل القرية، وتتلف المحاصيل تدريجياً تحت أشعة الشمس القاسية، إلى قرية مزدهرة نضرة خضراء تقوم اليوم بتصدير الخضراوات إلى الخليج العربي.

كان الدرس الأساسي الذي تعلمته نيروپا من التحقيقات التي أجرتها أنه بينما كان تجميع مياه الأمطار هو الحل، كان من الضروري إشراك القرويين في أي إجراءات تتخذ لمساعدتهم. فقد كان عليهم أن يشعروا بأن المشروع ملك لهم، وإلا فإنه لن ينجح؟ «المشكلة الكبيرة في الهند هي أن إدارة شؤون المياه يتولاها مهندسون مدنيون ليسوا مجهزين بما يلزم للقيام بعمل يعتمد على المجتمع المحلي. فعندما ضربت الأمطار والرياح الموسمية

المنطقة في عام (2005). على سبيل المثال، وعندما غمرتنا فيضانات مرعبة، تضرر الكثير من السدود، وبرك المياه وغيرها من الهياكل المائية. وبما أنه في معظم الحالات، كانت هذه البنى قد شيدت من قبل الحكومة من دون أي مشاركة من جانب السكان المحليين فيها، لم يبال أي شخص من أفراد المجتمع المحلي بإصلاحها. وقامت نيروپا بالتحرك «عندما جاءت خادمة خالتي إليّ وطلبت مني أن أساعد قريتها التي تعاني مشكلة وجود نقص حاد في المياه. وسافر القرويون في رحلة طويلة شاقة للقائها في شقتها في بومباي أول مرة. وفي عام 2001. قامت بالمساعدة على بدء مشروع لتجميع مياه الأمطار في القرية. وتعهدت منظمة غير حكومية ريفية في المنطقة تدعى «شير» SHARE (وتعني شارك) وهي الأحرف الأولى من اسمها كاملاً (Society to Heal , Act, Restore, Educate) أي جمعية الاستشفاء، العمل، الإصلاح، التعليم) تعهدت بتنفيذ المشروع. وتعمل SHARE حالياً بالتعاون مع «رابطة الطلبة السابقين في جامعة صوفيا» (SCESA Sophia College Ex Students Associatien) –التي تعد نيروپا عضواً في لجنتها الإدارية– في ستين قرية في ماهاراشترا. وقد توسعت اهتمامات عملهم في توفير المياه لتشمل تدابير الحفاظ على الصحة العامة والزراعة الثانية. نحن لن نبدأ بمشروع جديد في القرى التي يعاني أهلها مشكلات طبقية و إدمان الكحول أو غيرها من الانقسامات حتى يتآلفوا مع بعضهم».

تتمثل إحدى المظالم النموذجية للتعصب الطبقي في الهند في منع الداليت (المنبوذين) من استخدام بئر القرية من قبل القرويين الآخرين. وينظر الهندوس الذين يلتزمون بالأفكار التقليدية للطائفة إلى أي اتصال يتم بالمصادفة، بما في ذلك الاتصالات غير المباشرة عبر تناول الطعام أو الشراب مع الداليت، بوصفه عملية تدنيس. ومع ذلك فإن شخصاً من الداليت قد يقتل في الهند اليوم، ولا سيما في المناطق الريفية التي تتمسك بالتقاليد المحافظة، لكونه أقدم على ملامسة أحد الهندوس من أبناء الطبقة الاجتماعية المنغلقة، مصادفة أثناء سيره في الطريق. وربما يتم تعقب الأزواج الشباب الذين يجرؤون على الوقوع في الحب متجاوزين الحدود الطبقية، فيكون مصيرهم القتل. وربما يسمح لأولاد المنبوذين في المدارس العامة بدخول غرف الصفوف مع أولاد الطبقات الاجتماعية المتوارثة، ولكنهم غالباً ما يجب عليهم الجلوس منفصلين عنهم، كما يفرض عليهم أن يأكلوا على مسافة

بعيدة من الأولاد الآخرين. وتؤثر مشكلات نقص المياه بشكل غير متناسب على المنبوذين، بما أنهم آخر من يحظى بأولوية الوصول إلى الموارد الحيوية المهمة بما في ذلك المياه.

وعندما يتفق القرويون على العمل والتكاتف معاً، عندها فقط تقوم كل من منظمة SHARE ورابطة SCESA بتبني القرية ومعالجة قضاياها. ويتم اختيار هيئة محلية ولجنة مائية لتمثيل القرية، وقد تضم رئيس المجلس المحلي للقرية ويسمى «ساربانتش» Sarpanch وهو ينتخب ديمقراطياً. وأحياناً يكون رئيس المجلس امرأة في الوقت الحاضر، ومن المهم بشكل خاص، إشراك نساء القرية في موضوع المياه بما أنهن مسؤولات عن إيجاد المياه من أجل الاستعمال المنزلي، وغالباً ما تسير النساء في الهند عدة أميال كل يوم بحثاً عن المياه، وهن يحضرن معهن إلى البيت ما يقدرن على حمله فقط داخل جرار فوق رؤوسهن. ويجب على القرويين، على أي حال، تأمين يد عاملة دون مقابل، وهم يسهمون بشكل كامل في عملية البناء، ويتعلمون كيفية المحافظة على النظم الجديدة لمجمعات المياه التي يقومون بإنشائها. وقد كان البرنامج ناجحاً للغاية إلى حد أن الناس الذين كانوا قد تركوا قُراهم بسبب تفاقم القضايا المعيشية يتقاطرون الآن ببطء عائدين إلى ديارهم.

تنشط نفيسة باروت في العمل مع Utthan (يوتان) وهي منظمة غير حكومية تسخِّر جهودها لخدمة قضايا المرأة والمياه، وتتركز نشاطاتها في المناطق الساحلية لولاية غوجارات. وما يلفت الانتباه بشأن نفيسة التي تتحدر من خلفية قروية متواضعة هو تمسكها بمبدأ غاندي عن الديمقراطية العميقة، وهي تقول في إحدى مقالاتها: «كان غاندي قد اقترح أسلوباً للحياة يضمن قابلية البقاء، وكذلك المساواة بين الذكر والأنثى، والنهوض بأوضاع المعدمين. وكان المبدأ الأساسي لفلسفة غاندي يتمثل في مشاركة الناس في صناعة القرار، وإيجاد حلول محلية لقضايا المعيشة الأساسية، وحل النزاعات بإجماع الآراء»[10]

وتمول منظمة يوتان إقامة السدود الترابية، عمليات تجميع مياه الأمطار، إعادة تخزين المياه الجوفية، بناء برك مياه تقليدية في القرى، وغيرها من أساليب إعادة المياه إلى المجتمعات المحلية، التي استنزفت مخزونها الطبيعي من المياه إلى درجة انعدام قابلية البقاء. وفي القرى التي تقع على طول ساحل ولاية غوجارات حيث تنشط منظمة يوتان، سجل المؤشر البياني للمياه انخفاضاً كبيراً، وتلوثت الكثير من الآبار بمياه البحر. وتؤدي

إعادة ملء الآبار بالمياه عن طريق توجيه الجريان السطحي للهطل المطري باتجاهها في أثناء موسم الأمطار وغيرها من وسائل تجميع المياه، تؤدي بشكل جذري إلى تحسين مخزون مياه الشرب بالنسبة للقرى المتضررة. فالمياه في الآبار التي أصبح طعمها مالحاً تعود فتصبح حلوة ثانيةً. وتروي نفيسة كيف أنه مرة تلو المرة، أصبحت النساء اللواتي بدأن رحلة تمكين أنفسهن عن طريق العمل على تنفيذ مشروع مائي، واثقات بما يكفي للسعي من أجل الحصول على قروض مصرفية، وإقامة أعمال مشتركة كالمزارع الجماعية وبدء إنشاء تعاونيات، والمطالبة بمعاملتهن باحترام من جانب أسرهن ومجتمعاتهن.

وقد وجد ام.دينيش كومار وتوشآر شاه، وهما باحثان يعملان مع برنامج جنوب آسية التابع للمعهد الدولي للإدارة المائية، وجدا مستويات من مادة الفلور أعلى من الحدود المسموح بها في مياه أربع عشرة ولاية هندية مع تعرض (62) بالمئة من قرى الهند لكمية زائدة عن الحد من الفلور. كما عثروا على مستويات عالية من الملوحة في مياه منطقة غرب البنغال وفي المناطق المحيطة بمدينة دلهي، فضلاً عن الكشف عن وجود كميات كبيرة من الحديد في المياه التي ترفد ولايات بيهار، راجستان، تريبورا، وغرب البنغال، وكذلك ولاية اوريسا الساحلية. ويؤثر التسمم بالزرنيخ على ما يقارب (36) مليون شخص يعيشون غرب البنغال وفي بنغلاديش، حيث يعتمد الكثيرون من الناس على أنابيب الآبار التي تثقبها طبقة سفلية محملة بالزرنيخ تتشكل بصورة طبيعية. كما أن كثافة تركيز مادة النشادر نتيجة للجريان السطحي للأسمدة هي أعلى من المستويات المسموح بها في إحدى عشرة ولاية هندية. وتلوث السوائل الصناعية الجارية مياه الهند بمعادن ثقيلة كالرصاص، الكاديوم، الزنك، والزئبق، وتبذل جهود ضئيلة لتنظيف مكامن المياه الجوفية من هذا التلوث الهائل. «فالهند أفقر من أن تتحمل تكاليف الاستعانة ببعض وسائل التكنولوجيا التي تمت تجربتها في الغرب بنجاح لاسيما في الولايات المتحدة؛ لأنها مكلفة بشكل يمنع شراءها»[11]. وبالنسبة إلى دولة نامية كالهند أيضاً، تشكل الجهود التي تعتمد على المجتمع المحلي لإعادة تعبئة المكامن الجوفية وتحسين أسلوب إدارة الوضع المائي الأمل الأفضل لمواجهة أزمة المياه في المناطق الريفية.

الذوبان القادم

ليست الهند هي التي أوجدت الاحتباس الحراري في العالم، ولكن الاحتباس الحراري سوف يؤدي إلى خراب الهند. ويتمركز معظم سكان الهند على طول الشريط الساحلي الواسع للبلاد. ويتأهب عشرات الملايين منهم لترحيلهم عن المناطق الساحلية في حال حدوث ارتفاع في مستويات مياه البحر حسب التنبؤات. ويحذر تقرير مهم جداً لوزير المالية في المملكة المتحدة السير نيكولاس شتيرن نشر في الخريف الماضي، بأنه حتى اتفاقية كيوتو لا تسهم بما فيه الكفاية للحيلولة دون وقوع كارثة عالمية وشيكة نتيجة لتغير الظروف المناخية. وهو يحث الحكومات على التحرك على الفور، وإنفاق واحد بالمئة من الناتج المحلي الإجمالي أو (184) مليار جنيه استرليني للتحكم في انبعاث غازات البيوت البلاستيكية وإلا فإن الخسائر ستكون أضخم مما يمكن للإنسانية أن تتحمله[12].

سوف يكون تأثير الاحتباس الحراري ملموساً في الجزء الجنوبي من الأرض، ومن ضمنه الهند، أكثر كثيراً من الجزء الشمالي. وستكون الخسائر الاقتصادية عدا عن ذكر الخسائر البشرية مخيفة جداً لدى التفكير فيها. وكما هو الحال مع العديد من المشكلات الأخرى التي تواجهها الهند، فإن مجرد فداحة الضرر الذي قد يحدثه الاحتباس الحراري، والذي لا تُتخذ أية إجراءات للتخفيف من حدته، تشل الذهن والقدرة على التفكير. إلا أن الهند تمتلك طوع بنانها التكنولوجيا اللازمة لإيجاد حلول، لما يمكن أن يكون أخطر أزمة واجهتها الإنسانية على الإطلاق، كما تملك نفوذاً عالمياً متنامياً للضغط على «أسوأ المسيئين»، الولايات المتحدة والصين، من أجل التحرك أيضاً.

في عام (2006)، ارتفعت درجات الحرارة في العالم بحدود درجة واحدة على مقياس سلسيوس إلى أعلى درجة حرارة تسجلها منذ مليون سنة. وكانت درجات الحرارة أدفأ مما كانت عليه في أي وقت آخر في أثناء المدة الزمنية الواقعة مابين الدورين الجليديين للمناخ المعتدل، التي دامت اثنتي عشرة ألف سنة، وتطورت في أثنائها المدنية كما نعرفها. وفي الوقت الذي كان فيه الاحتباس الحراري ظاهراً على أوسع نطاق في أقصى الشمال،

بات من الملحوظ أن المحيط الهندي أصبح أكثر دفئاً، وكذلك الأمر بالنسبة للوضع في جبال الهيمالايا. ويميل الاتجاه الحالي نحو المزيد من الاحتباس الحراري، وهو وضع يحمل إمكانية إحداث تأثيرات مدمرة بالنسبة لمسيرة التنمية في الهند ولمستقبل شعبها.

وتعليقاً على تقرير نشر في (26) أيلول « سبتمبر » 2006. حول محاضر جلسات الأكاديمية الوطنية للعلوم»، أصدر جيمس هانس من معهد غودارد لدراسات الفضاء التابع لوكالة الفضاء الأمريكية (ناسا) هذا التحذير: «إذا ما بلغ المزيد من الاحتباس الحراري درجتين أو ثلاث درجات على مقياس سيليسيوس، فإن من المرجح أن نشهد تغييرات تجعل من الأرض كوكباً مختلفاً عن الكوكب الذي نعرفه. وكانت آخر مرة تشهد فيها الأحوال الجوية مثل ذلك الطقس الدافئ في منتصف العصر البليوسيني منذ نحو ثلاثة ملايين سنة تقريباً عندما كان مستوى البحر يصل وفقاً للتقديرات إلى (25) متراً تقريباً (ثمانين قدماً) أعلى من المستوى الذي يصله اليوم»[13] ويحذر آل غور في فيلمه السينمائي وكتابه المسمى «الحقيقة المزعجة» بأنه في حال ذوبان القطب الشمالي -وهناك علامات واضحة بأن ذلك هو ما يفعله تماماً- فإنه سيتم ترحيل (60) مليون شخص من كالكوتا، ومنطقة غرب البنغال الساحلية، وبنغلاديش[14]. وفي شهر تموز عام (2005). كانت بومباي مغمورة بسبع وثلاثين بوصة من مياه الأمطار في أثناء أربع وعشرين ساعة، وهو أكثر هطل غزارة شهدته أي مدينة في الهند من قبل، وأدى إلى وفاة أكثر من ألفي شخص. وفي الأسبوع الأخير من شهر آب (2006)، فاضت مقاطعة بارمر في ولاية راخستان المعرضة للجفاف بعدما غمرها 750 ميلليمتراً من مياه الأمطار، وهي كمية أكبر خمس مرات من المعدل السنوي الإجمالي؛ ومات آنذاك مئة وثلاثة وتسعون شخصاً ونفق خمسة وأربعون ألف رأس من الماشية.

وفي حين أنه بالإمكان تفسير كل واقعة خطيرة للأحوال الجوية السيئة بمعزل عن غيرها باعتبارها استثنائية، فقد سجل التاريخ عدة وقائع من هذا النوع على مدى قرون، فلم يعد هناك بعد الآن من مجال للإنكار بأن هذه الوقائع تتزايد في تكرارها وفي شدتها. وفي عام (2005). أفاد تقرير للمنظمة الدولية للأرصاد الجوية التابعة للأمم المتحدة أن (90) بالمئة من الكوارث الطبيعية جميعها التي وقعت ما بين عام (1992). وعام (2001). كانت نتيجة لأحوال طقس سيّىء جداً «نجم عنها مقتل 622,000 شخص وإلحاق الضرر بملياري

شخص آخرين، وتدمير أراضٍ صالحة للزراعة وانتشار الأمراض. ويقدر الحجم الكلي للخسائر الاقتصادية على مدى المدة ذاتها بنحو (450) مليار دولار»[15]. وفي عدد خاص حول مسألة الاحتباس الحراري واحتل غلاف المجلة في شهر أيلول من عام 2006، حذرت مجلة «الايكونوميست» بأن «جليد المحيط المتجمد الشمالي مثلاً، يذوب سريعاً بصورة غير متوقعة بمقدار تسعة بالمئة كل عشر سنوات. كما أن الأنهار الجليدية آخذة بالذوبان بشكل مثير للاستغراب. وهناك مجموعة من الظواهر مثل النشاط البركاني، التي كان يعتقد في السابق أنها غير مرتبطة بتغير المناخ، يجري ربطها به بشكل متزايد.

وقد ارتفعت درجات الحرارة في جبال هيمالايا، «سقف العالم» الأسطوري الذي يضم أعلى القمم على وجه الأرض، ارتفعت في السنوات الأخيرة بمقدار درجة واحدة على مقياس سيلسيوس؛ وتحوي جبال هيمالايا أكبر عدد من الأنهار الجليدية خارج المناطق القطبية. وتشكل هذه الأنهار الجليدية مورداً للمياه بالنسبة لملياري نسمة. كما تشكل البحيرات المتجمدة خطراً كبيراً بشكل خاص: عندما تنهار السدود الجليدية فجأة، تجرف معها كل شيء في الأسفل كما حدث على نحو مأساوي للقرويين في نيبال. وقد ازدادت هذه الحوادث بمقدار عشرة أضعاف في أثناء السنوات العشرين الماضية. واعتباراً من عام (2005) كانت هناك أربع وعشرون بحيرة جليدية معرضة لخطر الانشطار في بوتان وأربع وعشرون أخرى في نيبال[17] وفي حين تتلاشى الأنهار الجليدية بفعل الذوبان، سيتراجع جريان المياه في الأنهار الرئيسة للمنطقة، وسيتقلص حجم تدفق المياه عبر السدود الكهرمائية، مما يؤدي إلى خسارة للطاقة لا يمكن للمنطقة أن تتحملها.

التسمم بالمبيدات الحشرية

يعد استخدام المبيدات الطفيلية والمبيدات الحشرية من بين الأكثف في العالم مع تسجيل (165) مبيداً طفيلياً. وقد ازداد استخدامها بشكل ثابت، وذلك استناداً إلى تقرير صدر عام (2001) عن «المجلس الهندي للبحوث الطبية». ويجري في الهند حالياً إنتاج واستخدام مادة الـ «د.د.ت» D.D.T، «بي.اتش.سي» BHC، «الكاربوميدات» carbomate، السلفوناميد المثبت endsulfan وكذلك الليندين lindane، وجميعها موجودة في المياه السطحية والمياه الجوفية.

وقد قدمت المبيدات الفطرية فوائد كثيرة للهند بالتأكيد، وكان لها تأثير إيجابي ملموس. فالمناخ الاستوائي للبلاد يعرضها لأمراض عديدة منشؤها الحشرات، بما فيها الملاريا وداء الخيطيات و حمى الضنك و التهاب الدماغ و الكوليرا والتيفوئيد، الذي ينتشر عن طريق قمل الإنسان. ويُعزى إلى مبيد د.د.ت الفضل في التقليل من الإصابات السنوية بالملاريا من (75) مليون حالة في عام 1952، إلى 2-4 مليوناً في الوقت الراهن. وقد كانت المبيدات الطفيلية عنصراً أساسياً في الثورة الخضراء، وأدى استخدامها مع خليط من البذور الهجينة الجديدة، والأسمدة الصناعية، وعمليات الري، إلى زيادة غلال المحاصيل بشكل جذري أثناء أعوام الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي. إلا أن ثمن هذه الغلال كان باهظاً. فقد اكتشفت بقايا من مبيد «د.د.ت» و«اتش.سي. اتش» وغيرها من المبيدات الطفيلة في أنسجة بشرية وحيوانية، وفي المياه وفي الهواء في أرجاء العالم كله. وأدت الحملة لإنقاذ الصقر الأمريكي الأصلع إلى صدور قرار عام 1972، بحظر استخدام مبيد «د.د.ت» في الولايات المتحدة، مما أسفر عن تقليص وجوده في الولايات المتحدة بشكل كبير، غير أن ذلك لم يعن التخلص منه. وتسجل مستويات الـ «د.د.ت» و«اتش.سي.اتش» ارتفاعاً ملحوظاً في الهند بالتحديد، كما يظهر في التحاليل المخبرية لعينات من الدم، والدهون، وحليب الأم.

واستناداً إلى تقرير المجلس الهندي للبحوث الطبية، «فإن القراءة المتأنية لبيانات رواسب المبيدات الطفيلة في الهند في عينات الفاكهة، الخضراوات، الأنواع المختلفة للحبوب كالحنطة والشعير والأرز والذرة ودقيق القمح والزيوت والبيض واللحوم و السمك و الدواجن والحليب البقري والزبدة والجبنة تدل على وجودها بكميات ضخمة [18]. وقد حدد العلماء وجود HCB، وهو مبيد فطري أيضاً، وD.D.T وHCH في عينات الطعام التي فحصوها. وكانت هذه المواد الكيماوية قد ارتبطت بالتسبب بمرض السرطان واضطرابات هرمونية بإمكانها أن تضر بالخصوبة، وأدت في إعداد من الحيوانات البرية، ولا سيما الحيوانات البرمائية إلى إحداث تبدلات جنسية غريبة فتحولت إلى كائنات مخنثة، تجمع معاً خصائص الأُنوثة والذكورة.

كانت المبيدات الطفيلية الكيماوية ناتجاً فرعياً لصناعة الأسلحة الكيماوية، ولم يتم تطويرها من أجل الاستخدام التجاري إلا بعد الحرب العالمية الثانية. ومن بين كل المبيدات

الطفيلية التي تشكل مخاطر على صحة الإنسان، يعرف مبيد الليندين على نطاق واسع بأنه الأسوأ، فهذا المبيد الذي يتلف الأعصاب، هو الكلور الغازي السام لبنية أعضاء الجسم، ومن عائلة مبيد الـ د.د.ت نفسها. وبإمكان المستويات العالية منه أن تتسبب في حدوث اختلاجات ووفيات. كما أن التعرض للمستويات المتدنية منه قد يؤدي للإصابة بالسرطان وتعطيل عمل الجهاز الهرموني الطبيعي. وقد حظرت اثنتان وخمسون دولة وبشكل مطلق إنتاج واستخدام مبيد الليندين، في حين ما تستنفد الولايات المتحدة 230,000 رطلٍ منه سنوياً في منتجات معالجة البذور، وما زالت تسمح باستخدامه لمعالجة قمل الرأس. أما الهند فتستمر الهند في تصنيع الليندين.

ونشر مركز العلوم والبيئة في نيودلهي (Center for Science and the Environment CSE) تقريراً في عام (2003). أورد فيه أمثلة على وجود مستويات عالية من رواسب المبيدات الطفيلية في المخزون الغذائي للهند، بما فيها المشروبات الخفيفة المصنّعة من قبل شركتي كوكاكولا وبيبسي كولا فرع الهند. وأكدت اللجنة المشتركة للبرلمان الهندي النتائج التي توصل إليها مركز العلوم والبيئة، وأوصت بوضع معايير محددة لصناعة المشروبات الخفيفة. كذلك أصدر المركز في العام الماضي تقريراً جديداً وجه فيه اتهامات بأن المستويات ما زالت عالية فقط، وإنما ارتفعت عن المستويات التي كانت عليها في عام 2003. وكان من بين رواسب المبيدات الطفيلية التي عثر عليها في المشروبات الخفيفة مستويات عالية من الليندين.

كان رد الفعل من جانب حكومة الولايات المتحدة ومجموعات الشركات التجارية الهندية – الأمريكية سريعاً وعدائياً. فقد حذر نائب وزير التجارة الدولية فرانكلين لافين بأن هذا النوع من التصرف يعد انتكاسة للاقتصاد الهندي. «وقال»: إنه في وقت تقوم فيه الهند ببذل جهود شاقة من أجل جذب الاستثمارات الأجنبية والمحافظة عليها، سوف يكون من المؤسف أن يُجرى البحث في الموضوع تحت سيطرة أولئك الذين لم يرغبوا في معاملة الشركات الأجنبية بشكل عادل[19]. وعبر براباكار بوثيردي، رئيس غرفة التجارة الهندية – الأمريكية عن غضبه من إرسال «الرسالة الخاطئة للمستثمرين في وقت تتوافر فيه فرص كبيرة للشركات التجارية في كلا البلدين للعمل معاً». ومع النمو السريع للروابط الاقتصادية

والعسكرية والإستراتيجية، والتحضير لمجيء أكبر وفد تجاري أمريكي يزور الهند في نهاية عام 2006، كان للتقرير الصادر عن مركز العلوم والبيئة الذي استهدف الشركات الأمريكية العملاقة المنتجة للمشروبات الخفيفة وقعاً مدوياً. وقامت المحكمة العليا في الهند بزيادة الوضع سوءاً وتعقيد الموقف عندما أعطت الشركات مهلة ستة أسابيع للكشف عن وصفاتها السرية لمعرفة الأسباب التي تؤدي إلى احتمال وقوع حوادث تلوث كهذه. ومع استثارتها للغضب السياسي، عمدت أحزاب المعارضة من التيارات اليسارية واليمينية إلى إدانة الشركات -الرموز المتنفذة للرأسمالية الغربية والثقافة الاستهلاكية- من أجل رفع شأن هذه الأحزاب في عيون الناخبين الهنود المذعورين. وقامت عدة ولايات، وعلى الفور، بحظر بيع المشروبات الخفيفة لشركتي كوكا كولا وبيبسي كولا.

غادرت شركة كوكا كولا الهند كما هو معروف في عام (1977). عوضاً عن الكشف عن تركيبتها الكيميائية السرية، وكانت عودة الشركة في عام (1993). رمزاً لإعادة تأهيل الهند في السوق العالمية وعلامة على أن الهند كانت آمنة ثانية كساحة للمشروعات التجارية الأمريكية. ومع أن الهند تشكل (1) بالمئة فقط من مبيعات المشروبات الخفيفة لشركة كوكا كولا في العالم، فإنه ينظر إلى إمكانيات السوق الهندية على أنها هائلة، كما تشكل الهند جزءاً من الخطة الإستراتيجية طويلة الأمد للشركة. وسوف تعمل شركة «Coke» جاهدة للبقاء في الهند، إلا أنها لن تنشر وصفتها السرية مطلقاً.

وكانت خيبة الأمل الفعلية في النقاش بأكمله هو أن كل الأحزاب كانت مذنبة باتخاذها مواقف منقسمة: فهناك موقف يرى في شركة «كوك» دلالة سيئة على الاستغلال الغربي مقابل موقف آخر يعد شركة «كوك» دلالة رائعة على انضمام الهند إلى العالم الغربي المتقدم. وبات الوضع معقداً، ويتطلب مقاربة أكثر دقة. إن تبرئة شركة كوكاكولا وإعفاءها من المسؤولية على أساس أن مادة السكر والمياه في الهند هما المذنبان الحقيقيان، ومن دون فتح نقاش عام وصادق عن كيفية مواجهة المشكلة الخطرة المتعلقة بالتلوث بالمبيدات الطفيلية ليس في الهند فقط، بل في كل أنحاء العالم، هو أمر لا يبعث على الرضا وهذه المشكلة هي أبعد ما تكون عن مقدرة شركات المشروبات الخفيفة الغربية لحلها، إلا أنه من

الصحيح أيضاً أن الهند تواجه مشكلات مائية وبيئية حادة بحيث إن تصنيع المشروبات الخفيفة لا يفعل شيئاً لمعالجتها.

ومن المؤسف أن الجدل الدائر حول المبيدات الطفيلية يأتي ليضيف إلى هموم أخرى بالنسبة لشركة كوكا كولا في الهند. فقد جرى اتهامها باستنزاف المكامن المائية الجوفية في مصنعها في مدينة بلاتشيمادا، بولاية كيرالا مما أدى إلى حدوث انخفاض في مؤشر المياه إلى أعماق لا يمكن للقرويين المحليين استجرارها. ويجب على نساء القرى أن يقمن برحلات شاقة وطويلة من أجل إحضار المياه التي يحملنها في الأواني عائدات إلى بيوتهن، في حين تغادر المصنع حمولات متتالية من المشروبات الخفيفة المعلبة تحملها شاحنات نقل البضائع. كما اُتهمت شركة كوكاكولا بالتخلص من الرواسب الطينية الكثيفة، وهي منتج فرعي ينجم عن تصنيع المشروبات الكحولية، في أرض المزارعين وعلى طول قناة مائية قريبة من المصنع. وقد لجأ السكان المحليون إلى تقديم شكاوى عديدة بشأن الرائحة الكريهة التي تطلقها هذه المادة.

أثار الجدل بشأن مشروب الكولا في الهند عدة قضايا. أولاً، في بلد لا يملك فيه الكثير من الناس فرصة الوصول إلى مياه الشرب السليمة، ووجهت اتهامات بأن قيام إحدى أقوى الشركات متعددة الجنسيات في العالم بتحويل المياه -التي لا تدفع شيئاً مقابل الحصول عليها، التي تتهم بأنها تأخذها من السكان المحليين الفقراء- إلى مشروب خفيف ثمنه مرتفع بصورة يصعب على هؤلاء السكان شراؤه، لا يبدو أمراً صالحاً مهما كانت الحقيقة. ثانياً، وكما أشار تقرير مركز العلوم والبيئة (CSE) مثله مثل تقرير (المجلس الهندي للبحوث الطبية) ICMR فإن هناك نسبة من المبيدات الطفيلية غير الآمنة متفشية في المخزون الغذائي للهند. ولابد أن معجزة ستقع إذا ما قام مصنع للمشروبات الخفيفة يستخرج مياهاً جوفية تقع في منطقة زراعية في الهند، بإنتاج منتج غير ملوث وخالٍ من المبيدات الطفيلية. والسكر في الهند، وهو مكوّن أساسي من مكونات الكوكا كولا والبيبسي، هو أيضاً ملوث برواسب المبيدات الطفيلية. ومن الصعب عدم تصور أن مزج السكر الملوث بالمبيدات الطفيلية مع المياه الملوثة بالمبيدات الطفيلية قد ينتج عنه مشروبات خفيفة ملوثة

بالمبيدات الطفيلية. ووفقاً لمقال نشر في صحيفة «نيويورك تايمز» عندما ثار الجدل حول هذه المسألة في العام الماضي، فإن هناك نقاشاً دائراً في الهند حول «كيفية تنظيف السكر من آثار المبيدات الطفيلية، وهناك أيضاً إقرار بأن المياه الجوفية للبلاد هي بشكل عام، ملوثة بشدة إلى حد أن معظم المنتجات الغذائية تحوي بعض رواسب المبيدات الطفيلية.

وقد فندت شركة كوكاكولا الهند نتائج تحليل مركز العلوم والبيئة (CSE)، واستشهدت بتقرير لمختبر مستقل أظهر أن مشروباتها الخفيفة المصنّعة في الهند تفي بالمعايير التي حددها الاتحاد الأوروبي. وتمسك مركز العلوم والبيئة بما توصل إليه من نتائج[21]. وكانت القضية قد توقفت هنا عندما كان هذا الكتاب في طريقه إلى المطبعة.

ولسوء حظ شركة كوكا كولا، فقد كانت الشركات الأمريكية تمتلك سجلاً طويلاً ومعيباً في كل أنحاء العالم عن إهمالها للاعتبارات المتعلقة بسلامة المستهلك وسلامة البيئة. وكانت المعايير المفروضة من جانب الحكومة الوسيلة الوحيدة لإرغام العديد من الشركات على كبح التلوث أو احترام الصالح العام للمواطنين العاديين والمجتمعات المحلية. وفي حالات كثيرة قامت شركات تتمركز في الولايات المتحدة بنقل مكاتبها ومنشآتها إلى دول، حيث تكون المعايير البيئية، وقوانين العمل، وغيرها من القيود والتعليمات المفيدة، التي اكتسبتها الديمقراطيات المتقدمة بشق الأنفس، أقل صرامة أو غير مطبقة بشكل فاعل.

إضافة إلى ذلك فقد كان لدى الهند صورة واضحة عن الشركات والمؤسسات التجارية الأمريكية، وتجارب سلبية مشحونة عاطفياً معها[22]. وكان أكثرها إثارة للانفعال الحادث المأساوي الذي وقع عام (1984) في معمل كيميائي في بلدة بوبال. وفي وقت وقوع الحادثة، كان هذا المعمل التابع لشركة يونيون كارباید Union Carbide يقوم بتصنيع المبيدات الطفيلية. وأدى حدوث تسرب في غاز سام إلى مقتل سبعة آلاف شخص من ضمنهم عدد كبير من الأطفال. وتوفي خمسة عشر ألف شخص آخرين نتيجة التعرّض لاستنشاق الغاز. ويظل العدد الدقيق للضحايا، ومنهم الأشخاص الذين يعانون مرضاً مزمناً أو أذية جسدية دائمة، غير محدد حيث تتراوح التقديرات ما بين مئة ألف إلى نصف مليون. وسعت الهند دون أن توفق إلى تسليمها المدير التنفيذي المسؤول للشركة آنذاك، وارن اندرسون؛ ولم يتم تحميل أي شخص المسؤولية حتى تاريخه.

ويظل تسرب الغاز السام في بوبال أحد أسوأ الحوادث الصناعية في التاريخ. وقد أنكرت كل من شركتي «يونيون كارباید» و«داو كيميكل» للكيماويات التي اندمجت معها في عام 2001، كل مسؤولية عن الحادث. ولم يتم تنظيف موقع التسرب أبداً. وأصدرت منظمة العفو الدولية تقريراً شديد اللهجة في عام (2004). بمناسبة الذكرى العشرين للكارثة، دفعت فيه بأن «قضية بوبال تظهر كيف أن الشركات تتهرب من مسؤولياتها إزاء حقوق الإنسان»[23]. وفي حين تكبر مصالح الشركات التجارية الأمريكية في الهند، يأمل المرء بأن يطغى مستقبلاً إحساس أكبر من المسؤولية تجاه المجتمعات المحلية.

ثورة خضراء ثانية

كانت الثورة الخضراء التي أحدثت تحولات في مجال الزراعة في القرن الماضي اختراعاً أمريكياً خالصاً. وبدأت هذه الثورة في عام (1944). مع مشروع أبحاث قامت بتمويله مؤسسة روكفيلر في المكسيك، وأجراها الدكتور نورمان بورلوغ، الاختصاصي في علم الوراثة عند النباتات وهو من ولاية مينيسوتا، وذلك بهدف المساعدة في إنتاج أنواع هجينة جديدة من النباتات تزيد من غلال الحبوب الغذائية. كان المشروع ناجحاً بشكل هائل، فتحولت المكسيك في أثناء عقدين من الزمن من دولة مستوردة للقمح إلى دولة مصدرة له. وفي أعوام الستينيات من القرن الماضي ساعدت مؤسسة روكفيلر على جلب الثورة الخضراء إلى الهند التي كانت تواجه نقصاً حاداً في الغذاء إلى درجة أثارت مخاوف من حدوث مجاعة خطيرة. وجرى زرع البذور الهجينة التي تمت تنميتها في المكسيك، في إقليم البنجاب، حيث ازدادت كميات المحاصيل ازدياداً كبيراً. وتابع الدكتور ام. اس سواميناثان مهمة رعاية ثورة الهند الخضراء، فعمد إلى تطوير بذور نباتات هجينة محلية ونشر الغلال كالمعجزة في كل أنحاء جنوب وجنوب شرق آسية. وانتقلت الهند من مستورد صرف للحبوب إلى دولة منتجة لمحاصيل وافرة منها ما وصل إلى (131) مليون طن من الحبوب في عام (1978)، مما جعلها إحدى أكبر الدول المنتجة للحبوب في العالم.

وبالإضافة إلى البذور الهجينة الجديدة، قامت الثورة الخضراء بعملية استخدام مكثف لكل ما هو جديد من المبيدات الطفيلية، والمبيدات العشبية والأسمدة الصناعية وأساليب

الري. ووضعت الأسمدة الزراعية التي تعتمد على النيتروجين المصنوع من الغاز الطبيعي، وضعت النباتات على قدم المساواة مع الستيروئيدات [أنواع من المركبات العضوية] وزادت من خط الإنتاج. غير أنه تبين وبسرعة أن المبيدات الطفيلية التي تحوي الكلور العضوي كانت تتسبب في الإضرار بما هو أكثر من الطفيليات الزراعية. وقد لفت نشر كتاب راشيل كارسون «الربيع الصامت» عام (1962) الانتباه إلى مخاطر مادة د.د.ت وساعد على إطلاق الحركة البيئية.

ارتفع سعر الأسمدة الصناعية بشكل مترادف مع سعر الغاز الطبيعي، الأمر الذي أدى إلى زيادة تكاليف الإنتاج الغذائي. أضف إلى ذلك، فإن التلوث الناجم عن هذه الأسمدة في صيغة نيترات، يطرح مشكلة خطيرة في العالم كله. وفي الولايات المتحدة حيث تعد أسمدة النيتروجين عنصراً أساسياً في أكثر الزراعات إنتاجاً في العالم، «تم إغلاق المزيد من الموارد المائية العامة بسبب انتهاك معايير مياه الشرب بالنسبة لعنصر النيترات أكثر من أي ملوث آخر»[24] ومن دون هذه الأسمدة، فإن الغلال الكثيرة لحقبة ما بعد الثورة الخضراء لم تكن لتكون ممكنة، ومع ذلك فهي تطرح مخاطر جدية، وربما تلحق الضرر ببيئتنا بشكل دائم ولا سيما بمياهنا[25]. فهناك كميات هائلة من المياه التي يتم إيصالها عبر عملية السقاية يمكن أن تكون مضرة بيئياً. كما أن المبالغة في استخدام المياه في الري له آثار سلبية على تركيبة التربة، حيث يزيد، ولا سيما بالتزامن مع استخدام الأسمدة النيتروجينية، من ملوحة التربة ويقلل من إنتاجيتها وخصوبتها. ويواجه المزارعون هذه المشكلات في إقليم البنجاب حيث انطلقت ثورة الهند الخضراء.

لم تؤد الزيادة السريعة في إنتاج الأغذية في الهند إلى القضاء على الجوع في البلاد. وعلى الرغم من أن الهند تدعي أن لديها اكتفاء ذاتياً لناحية الغذاء، وأنه لناحية مجرد كمية الحبوب الغذائية التي يجري إنتاجها، فإن الادعاء له ما يبرره، فإن المزيد من الناس في الهند يعانون الجوع أكثر من أية دولة أخرى بمفردها. وهناك على الأقل (232) مليون شخص في الهند لا يحصلون على ما يكفيهم من الغذاء. ووفقاً لتقرير أصدرته منظمة اليونيسيف (UNICEF) في العام الماضي، فإن 200 مليون طفل ممن يعانون سوء التغذية -ثلث مجموع الأطفال الذين يعانون سوء التغذية في العالم- يعيشون في الهند. ويعاني نصف أطفال الهند

تقريباً (47) بالمئة، نقصاً حاداً في الوزن[26]. وكما أشار آمارتيا سين، فإن الحصول على كمية كافية من الغذاء ليس كافياً، فالناس يجب أن يمتلكوا الحق في الحصول على الغذاء.

لم تتمكن الهند من الوفاء باحتياجاتها من الحبوب الغذائية في العام الماضي. واستوردت الحكومة (2.2) مليوني طن من القمح، بما فيها شحنات من شركات أمريكية عملاقة مثل (كارغيل) Cargill، أكبر شركة في العالم لتجارة الحبوب، وآرتشر دانييلز ميدلاند Archer Daniels Midland. وليس بإمكان الخطوات الواسعة التي تتخذها الهند في إطار تزايد إنتاجها من القمح -تحقق زهاء 70 مليون طن من الإنتاج سنوياً- مجاراة الزيادة المستمرة في عدد السكان والاستهلاك المتضخم. وقد أسهم تحويل الأراضي من قبل المزارعين المقيمين فيها الذين يعيشون فيها على الكفاف من محاصيل غذائية إلى محاصيل نقدية كالقطن، أسهم في تفاقم المشكلة؛ وكذلك فعل خفض مساحة الأرض المحددة لزراعة الحبوب الغذائية التقليدية المغذية، وتلك التي لديها قدرة كبيرة على الاحتمال والنمو في العراء على مدار العام مثل السرغوم وحبة الدخن. وتسبب الانخفاض الحاد في إنتاج القمح في رفع اسعار دقيق القمح، العنصر المكون للخبز الهندي المشروح الذي يشكل عصب الحياة لمئات الملايين، وذلك بمقدار (30) بالمئة في العام الماضي[27]. وقد أدى هذا الأمر إلى إجهاد أسر الطبقة الوسطى الأدنى وإلى معاناة فقراء الهند من حرمان كبير.

هناك عنصر أساسي في وضع العلاقات الأوثق بين الهند والولايات المتحدة يتمثل في مبادرة تنمية زراعية جديدة رحب بها الرئيس بوش بوصفها «ثورة خضراء ثانية»، وذلك أثناء الكلمة التي ألقاها عند قلعة بورانا كيلا التاريخية في دلهي عندما زار الولايات المتحدة في العام الماضي. ويطلق على المبادرة مبادرة المعرفة الزراعية الهندية - الأمريكية. ويقوم الدكتور نورمان بورلوغ، وعقب فوزه بجائزة نوبل لجهوده المبذولة في الثورة الزراعية الأولى، بالمشاركة في الجهد المشترك الجديد. وتندرج أهداف المبادرة الزراعية كما يلي: (1) رفع الإنتاجية الزراعية لدعم الأمن الغذائي؛ (2) زيادة انتقال التكنولوجيا، بما فيها التكنولوجيا الحيوية، (3) بناء سياسة سليمة وبيئة تنظيمية. (4) توسيع التجارة والاستثمار وتشجيع اندماج الهند في الاقتصاد العالمي. (5) ضمان دور رئيس للقطاعات الخاصة الهندية والأمريكية، و(6) إعادة تنشيط علاقات الشراكة بين الجامعات في الولايات المتحدة والهند.

ويبدو من المستغرب، للوهلة الأولى، تسمية اتفاقية زراعية «مبادرة معرفة». ولكن من الأهداف الأساسية للاتفاقية، توسيع الملكية الفكرية القابلة لمنحها براءة اختراع أو امتياز. ووفقاً لموقع وزارة الزراعة الهندية على الإنترنت، فإن المشاركين عن القطاع الخاص هم مزرعة ماساني والشركة الهندية للتبغ من الجانب الهندي، ومونسانتو، وآرتشر دانييلز ميدلاند، وقبل كل الشركات، شركة وول-مارت من الجانب الأمريكي. وتشارك شركتا مونسانتو وارتشر دانييلز ميدلاند الآن، وكما رأينا، سابقاً وبكثافة في القطاع الزراعي الهندي. وتملك شركة وول-مارت كل التصميم على أن تكون كذلك في اللحظة التي تسمح فيها الحكومة الهندية بدخول الشركة إلى البلاد. وكانت صحيفة «Hindu» قد ذكرت في تقرير لها العام الفائت أن «البحث في تهجين المورثات (الجينات)، أي إجراء بحوث على الكائنات العضوية المعدلة وراثياً في المحاصيل، والحيوانات، والأماكن المخصصة لصيد الأسماك، سوف يشكل جزءاً مهماً من التعاون في مجال التكنولوجيا الحيوية»[28] وفي تقرير للصحيفة العلمية المحترمة «Nature» «نيتشر» والصحيفة المختصة بالتكنولوجيا الحيوية «Nature Biotechnology» «نيتشر بيوتكنولوجي» أكد كي.اس. جايارمان «أن أكثر ما يثير استياء النقاد هو وجود شركة مونسانتو، ثاني أكبر شركة منتجة للبذور المعدلة وراثياً في العالم، وشركة وول-مارت أكبر شركة بيع بالتجزئة في العالم، في عضوية مجلس إدارة المبادرة الجديدة».

وينقل المقال عن محلل شؤون السياسة الغذائية الهندي ديفندر شارما قوله بشأن الدور الذي من المحتمل أن تلعبه الجامعات الهندية فيما يتعلق بشركتي مونسانتو ووول-مارت: «بوجودهما في مجلس الإدارة، فإن الشركات الأمريكية متعددة الجنسيات جاهزة جميعها لتقرير برنامج البحوث الزراعية الهندية»[29].

إن الجمع مابين التنوع الوراثي الغني للنباتات والحيوانات في الهند، وسوقها الكبيرة المحتملة ومقدرتها الأكيدة كمركز للبحوث والتنمية، كلها تشكل نقاط جذب قوية تستقطب اهتمام الشركات التجارية الأمريكية. فبإمكان هذه الشركات أن تتطلع إلى توسيع نطاق أصول حقوق الملكية الفردية الخاصة بها، وبشكل سريع، باستخدام الطاقة الذهنية الهندية للمساعدة على إطلاق أفكار جديدة في مجال التكنولوجيا الحيوية وبحوث تهجين المورثات،

واستخدام الحقول الهندية لاختبار منتجات مهجنة جديدة أدخلت فيها عناصر مورثة من صنف آخر، ثم بيع هذه المنتجات للمستهلكين الهنود، سواء للمزارعين منهم أو لزبائن متاجر البيع بالتجزئة.

وقد أجريت اتصالاً هاتفياً مع سومان ساهاي من منظمة «حَمَلة المورثات «جين كامبين» في دلهي لأطرح عليها المزيد من الأسئلة بشأن تحفظها على الاتفاقية الزراعية بين الهند والولايات المتحدة. و«حملة الجينات» هي منظمة غير حكومية تركز نشاطاتها على توفير الأمن الغذائي والأمن المعيشي للمجتمعات الريفية والقبلية، وعلى تسخير وسائل التكنولوجيا من أجل تعديل الأغذية وراثياً، كما تركز على المعرفة المتأصلة، والاستخدام المقبول للموارد الطبيعية، المحافظة على الموارد الجينية وعلى حقوق الملكية الفكرية. كانت سومان تعبر عن انتقادها للاتفاقية بقوة قائلة: «سوف تكسب الهند القليل وتمنح الكثير جداً». وقالت لي: «اسمعي، إن الاتفاقية الزراعية هي بمنزلة تسديد لدين الاتفاقية النووية. وأنا أفهم الأمر على هذا النحو تماماً فمن السهل أن ندرك لماذا تحتاج شركة مثل مونسانتو وغيرها من أصحاب المصالح الزراعية الأمريكية إلى الهند. وهنالك مقدار كبير من المعارضة للكائنات الحية المعدلة وراثياً [GMO] في أوروبة، وإفريقيَّة واليابان. فلمن سيبيعون هذه الأشياء؟ إن دولة زراعية عملاقة مثل الهند مهمة جداً بالنسبة إليهم.

في عام 2006. قام المزارعون في ولايات اركنساس، ميسوري، المسيسيبي، لويزيانا، تكساس، وكاليفورنيا بمقاضاة قسم علم المحاصيل في شركة «باير» Bayer بعدما دخلت سلالة معدلة وراثياً من الأرز جرى تطويرها في مخابر الشركة ولم تتم الموافقة عليها، دخلت في السلسلة الغذائية ولوثت محصول الأرز في الولايات المتحدة. ويحوي الأرز المعدل على نوع من البروتين أطلق عليه اسم «ليبرتي لينك» Liberty Link يتيح له مقاومة المبيدات العشبية المستخدمة في القضاء على الأعشاب الضارة. وبعد اكتشاف التلوث، حظرت اليابان استيراد شحنات الأرز الأمريكي، ووضع الاتحاد الأوروبي الأسس المطلوبة للفحص المخبري للتأكد بأن جميع شحنات الأرز القادمة من الولايات المتحدة لم تكن ملوثة. وقد شكل هذا ضربة كبيرة لمنتجي الأرز في الولايات المتحدة[30]. ولا أحد يعلم التأثيرات المحتملة على المدى البعيد للجينات المعدلة للنباتات أو الحيوانات التي تدخل السلسلة الغذائية.

وقد سألت سومان عن الأسباب التي تدعو الحكومة الهندية إلى منح الولايات المتحدة رأسمالٍ من المورثات بهذا الحجم الهائل. ولم ترغب سومان في ذكر أسماء، ولكنها أبلغتني أن صنّاع القرار المتنفذين «لديهم ارتباطات مباشرة بهذا الأمر» والشركات الأمريكية ليست هي الوحيدة المفضلة. فشركة «سنجينتا» Syngenta السويسرية العملاقة المختصة بالتكنولوجيا الحيوية، مثلاً، تعمل مع مؤسسة «ڤاسانتداد» Vasantdada لإنتاج السكر في پيون بولاية مهاراشترا، في موضوع قصب السكر المعدل وراثياً. وقالت لي سومان بشكل عام: «لقد كانت هناك قناعة كبيرة على أعلى مستوى في الحكومة الهندية بقضية الكائنات العضوية المعدلة وراثياً.

وتابعت قائلة: «كان هذا مهيأ بصورة ذكية جداً عن طريق ربطه بالثورة الخضراء». فالثورة الخضراء بالنسبة للهنود، هي التي أعطتنا سيادتنا، وجعلتنا مكتفين ذاتياً، لذا فإن اللجوء إلى الربط ما بين هذه الاتفاقية بتلك عن طريق تسميتها «ثورة خضراء ثانية» هو أمر حكيم وذكي جداً. ولكن هذا لا يشبه الثورة الخضراء في شيء. فكل المعرفة التي ولدتها الثورة الخضراء كانت معرفة عامة. وستكون هذه كلها معرفة خاصة. وهي تتعلق بحقوق الملكية الفكرية والشركات الاحتكارية التي تقوم بتوسيع حدود ما تملكه».

ثورة دائمة الخضرة

من أجل تحديث زراعي مستدام

يطرح الدكتور ام. اس سواميناثان، وهو نظير نورمان بورلوغ الهندي، سياسة عملية مختلفة عن تلك التي تدعمها الشركات الزراعية الأمريكية. والدكتور سواميناثان، وهو «مستشار فخري» للجانب الهندي في مجلس «مبادرة المعرفة»، مقتنع بأن ثورة «دائمة الخضرة» مستدامة بإمكانها أن تنقذ الزراعة الهندية، وعلى نطاق أوسع، المجتمع الهندي. وتعرف مؤسسته «مؤسسة ام. اس سواميناثان» للبحوث أو (MSSRF) بتأكيدها على نهج تشاركي من الأسفل إلى الأعلى يضع الأشخاص قبل التكنولوجيا»[31]. وبصفته رئيساً للهيئة الوطنية الهندية للمزارعين، أعلن الدكتور سواميناثان في المؤتمر العلمي الثالث والتسعين

الذي عقد في العام الماضي في الهند» أن الأمر لا يتعلق فقط بزيادة الغلال وإنما أيضاً بزيادة الإنتاجية من دون التسبب في إلحاق ضرر اجتماعي أو بيئي»[32].

ويهدف عمل الدكتور سواميناثان بشكل أساسي، إلى اتباع طريق في المنتصف، اتباع اتجاه للزراعة الهندية ليس هو بالنموذج الذي تتبعه الشركات التجارية الأمريكية ولا هو عودة إلى أساليب الزراعة التقليدية الصرفة، التي لا يمكنها ببساطة أن تفي بالحاجات سواء تلك التي يتطلبها المزارعون أو السكان الحضر في الهند الذين يتزايد عددهم على نحو سريع. وهو ليس، على سبيل المثال، معارضاً بالمطلق للنباتات المعدلة وراثياً. إلا أنه يعتقد أن الهند تحتاج إليها وتستحق إنشاء هيئة تنظيمية للتكنولوجيا الحيوية الزراعية يمكن لعامة الناس أن تثق بها. وهو ملتزم أيضاً بوضع الصالح العام، والأمن الغذائي للمزارعين فوق كل الاعتبارات الأخرى، بوصفهما يشكلان حجر الأساس لبرنامج وطني للأمن الغذائي للجميع. كما أنه يرغب في رؤية المزارعين يبيعون الفائض من إنتاجهم فقط، وأن يجعلوا هذا الفائض متاحاً في نظام عام للتوزيع. وهو يريد أن يثقف المزارعين، وأن يجعلهم يتعلمون القراءة والكتابة، وأن يعرفوا كيفية التعامل مع التكنولوجيا حتى يحصلوا على المعلومات ذاتها والوسائل ذاتها التي تحصل عليها المؤسسات التجارية الزراعية الكبيرة.

والدكتور سواميناثان، وقد انحسرت جبهته الآن فوق الإطار المعدني لنظارته بعد تساقط شعره، مدرك بشكل قاطع للأمور العرضة للخطر في هذه اللحظة الحرجة. وهو يعتقد أنه لا بد من تحطيم «التمييز العنصري التكنولوجي»، الذي يحول في الواقع دون وصول ثورة تكنولوجيا المعلومات إلى الفقراء، ويحجبها عنهم. كذلك فإن الحصول على التكنولوجيا يجب أن يكون ديمقراطياً ومنصفاً، وهو يشجع الأساليب الزراعية التي تكون مقبولة بالنسبة لبيئة طبيعية جرى استنزافها سابقاً إلى حد الإنهاك. وبالتعاون مع برنامج الأمم المتحدة الإنمائي (UNDP) قامت مؤسسته بإطلاق مبادرة «القرى الحيوية» في عام 2000. وأوضح قائلاً: «تعني القرى الحيوية قرية تحتل فيها التنمية البشرية مكانة رفيعة. وهي تشكل بذلك مصطلحاً للتنمية التي تركز على البشر. وقد أطلق أيضاً مشروعاً لإنشاء مصرف شعبي لتطوير خطط تمويل القروض الصغيرة وغيرها من الوسائل المالية المفيدة للفقراء من

سكان الأرياف. والدكتور سواميناثان ملتزم بالتعامل مع «التحديات المزدوجة للقضاء على الفقر والمحافظة على الموارد الطبيعية»[33].

وفي المناطق الجافة مثل منطقة ڤيداربها حيث يعتمد المزارعون على هطل شحيح للأمطار لا يكاد يكفي، يؤيد الدكتور سواميناثان رعاية محاصيل الحبوب التقليدية الموجودة في عائلة نبات الدخن الذي يعطي محصولاً وافراً من الحبوب الصغيرة والملائمة للمناخ المحلي وأوضاع التربة، مثل ذرة السرغوم وحبة الدخن اللتين كان يزرعهما ماهيديو يوكيسان بينجاركار وأفراد الأسر الآخرين الباقين على قيد الحياة الذين التقيتهم، وبعض أهالي المزارعين الذين كانوا قد أقدموا على الانتحار. وبينما تعطى الاتفاقية الزراعية بين الهند والولايات المتحدة أهمية بارزة «لضمان دور أساسي للقطاع الخاص» يشدد الدكتور سواميناثان على أن «الخصخصة المتزايدة للغذاء وأنظمة السلامة المائية تقود منذ الآن إلى صفقة اجتماعية غير متساوية»[34] والدكتور سواميناثان شخصية لها احترامها في ميدان الزراعة في الهند، ويأمل المرء بأنه سوف يستمر في التأثير في السياسة الزراعية الهندية. إن رؤيته الشمولية ومعرفته المتعمقة بالزراعة في بلاده تمتلك الإمكانية لإطلاق ثورة لزراعة منصفة مستدامة ومهمة بالنسبة لمستقبل الهند.

أكشاك الإنترنت

يشكل الإنتاج الزراعي (24) بالمئة فقط من حجم الاقتصاد الهندي، غير أن زهاء (850) مليون شخص يعتمدون على الزراعة من أجل البقاء. ويعيش خمسة وعشرون بالمئة من هؤلاء، (212.5) مليون شخص تحت خط الفقر، بمداخيل تبلغ دولاراً واحداً أو أقل في اليوم. وتؤدي المستويات المتدنية من التعليم والصحة، وغير المستقرة أيضاً، إلى تثبيط مقدرتهم على إدراك طاقاتهم البشرية الكامنة. وقد ازداد الإنتاج الزراعي في الهند بنسبة تتراوح ما بين (1.5) و(3.2) بالمئة فقط مقارنة بالمعدل القومي المتسارع للنمو البالغ (8) بالمئة. ولتحقيق نسبة النمو السنوي المقررة والبالغة (10) بالمئة، فإن الحكومة الهندية متحمسة لرفع نسبة النمو الزراعي إلى (4) بالمئة. إلا أن السياسات التي تدعمها الحكومة من أجل تحقيق زيادة سريعة في النمو عبر تشجيع البيع بالتجزئة وعبر المحاصيل النقدية الموجهة نحو التصدير

التي يتم إنتاجها ضمن خطط زراعية واسعة النطاق، تجازف بإلحاق ضرر اجتماعي وبيئي خطير بالريف الهندي»[35].

وفي حين تحسنت الغلال بشكل جذري منذ الأيام التي سبقت الثورة الخضراء، فإن المنظومة الزراعية تبدو عليها علامات الإجهاد. فقد كان النقص في محصول الهند من القمح في العام الماضي، ناجماً في جزء منه عن غلال راكدة؛ ويعود السبب في ذلك جزئياً إلى الشركات الخاصة التي تنهش القمح الذي عادة ما تبيعه الحكومة من أجل المخزون الاحتياطي. وتظل غلال المحاصيل الغذائية الأساسية مثل فول الصويا أقل جداً من تلك التي تنتجها البرازيل. ولدى الهند أكبر عدد من الأراضي التي يجري حرثها ورعايتها، من أية دولة على وجه الأرض، ومناخها يتراوح ما بين معتدل إلى استوائي. وتمتلك البلاد الإمكانية لتصبح إحدى أولى المناطق الغنية بمحاصيل الحبوب والفاكهة والخضراوات المعدة للتصدير في العالم. ويكمن التحدي في تطوير الزراعة الهندية وبناء مقدرات حشودها الكبيرة من صغار المزارعين لضمان أمنهم الغذائي، وتحسين رزقهم المعيشي وزيادة قدرتهم الشرائية.

وقد عمدت الشركة الهندية المحدودة للتبغ «آي.تي.سي» ITC، وهي شركة زراعية عملاقة إلى تنفيذ إستراتيجية خطة ثورية لربط المزارعين بالأسواق بطريقة تؤدي إلى تمكين وإثراء المزارع، وتحسين الإنتاج الزراعي ونوعيته وزيادة الأرباح وحصة شركة (ITC) من السوق. وتستخدم هذه الخطة تكنولوجيا المعلومات والاتصالات أو برنامجاً يعتمد على تقنية الاتصالات الدولية، وذلك لتفعيل الإفادة من هذه القوة الرئيسة المحركة للازدهار الاقتصادي للهند.[36] وتشكل شركة (ITC) أحد أفضل الأمثلة عما اكتشفت أنها فلسفة تتشارك في تبنيها على نطاق واسع، الشركات التجارية الهندية بتحقيق النجاح عن طريق القيام بالعمل المفيد أو تطبيق فلسفة «زيادة قيمة حملة الأسهم عبر خدمة المجتمع»[37].

وتتألف الخطة من إنشاء أكشاك عبارة عن مراكز معلومات تستخدم الحاسوب الشخصي، مع إتاحة الفرصة للدخول إلى شبكة الإنترنت. وتسمي الشركة هذه الأكشاك «أي – تشوبالز» e -Choupals. أو الأكشاك الإلكترونية وقد أقامت الشركة هذه الأكشاك في قرى تقع على بعد (1.5) كيلو متر سيراً على الأقدام من المزارع التي تستهدفها الخطة، أو كشك واحد لكل

تجمع من خمس قرى. ويدار كل e- Choupal بوساطة أحد السكان المحليين المقيمين في القرية، الذي يتلقى تدريبه على يد فنيين في شركة (ITC) ويسمى سانتشالاك sanchalak، ويوضع جهاز الحاسوب في منزله. وتتصل مراكز أكشاك الإنترنت بمحاور أو مراكز رئيسة تقع على بعد خمسة وعشرين إلى ثلاثين كيلو متراً من المزارع المستهدفة - المسافة نفسها التي يقطعونها عادة للوصول إلى الأسواق- التي تتموضع في مبانٍ أقامتها (ITC). وتعمل هذه المحاور كنقاط تجميع لمحاصيل المزارعين، وكذلك كمحطات يختارون منها ما يحتاجونه من المستلزمات الزراعية، مثل الأسمدة والبذور. وهي تدار من قبل وسطاء محليين تختارهم الشركة كوكلاء مشتريات مدربين يعملون أيضاً بائعين ويسمون «ساميوجاكس» Samyojaks. وتتصل المحاور الرئيسة بدورها، بشبكة من الشركات الساعية لشراء منتجات المزارع أو بيع مستلزمات زراعية للمزارعين؛ وتستحوذ شركة (ITC) نفسها على جزء كبير من الإنتاج الذي تمد به فرعها المتطور المختص بالأغذية المصنّعة، وتقوم الشركة أيضاً بتوسيع الخدمات التي تقدمها في محاورها لتشمل تسليف الأموال، التأمين، الغاز المستخدم في مواقد الطهي وغيرها من المنتجات التي ربما يرغب المزارعون في شرائها.

ويقدم «كشك الإنترنت» معلومات حول الأسعار المتداولة في السوق بالنسبة للسلع الزراعية الأساسية، ويتيح الاطلاع على أفضل الأساليب والعادات المتبعة في الزراعة. وهو لا يتقاضى ثمناً مقابل هذه الخدمات المتوافرة في إطار خطة واعية موضوعة لاستقطاب مشاركة واسعة من جانب المزارعين. وبإمكان (السانتشالاك) أيضاً أن يجمع عينات التربة –هناك برنامج تعليمي مصور على جهاز الحاسوب يرشد المزارع إلى كيفية القيام بهذه العملية– وأن يقوم بتحليلها عن طريق خبير الإرشاد الزراعي، ومن ثم بناءً على هذه النتائج، يوصي بإجراء التعديلات اللازمة لتحسين إنتاجية التربة. ويقدم الـ e-choupal أيضاً معلومات عن متابعة أحوال الطقس، حتى يتمكن المزارعون من اختيار الوقت الأنسب للزراعة، وإضافة الأسمدة، واستخدام المبيدات الطفيلية في محاصيلهم. وفي حال اختيار المزارع أن يبيع محصوله لشركة ITC، فإنه يُعطى مقابله سعراً يكفله له السانتشالاك الموجود في القرية. وعندما يسلم المحصول إلى المركز الرئيس يقوم الـ «الساميوجاك» بوزن وفحص وتقدير جودة المنتج، ثم يدفع النقود للمزارع على الفور، وفقاً لسعر السوق الموضح والمكفول سابقاً. وباستطاعة

المزارعين أيضاً أن يختاروا بيع محصولهم عند «الماندیز» الـ Mandis أو الأسواق المركزية للمنتجات الغذائية القائمة في كل أنحاء الهند، وحيث تقوم الحكومة والوكلاء المستقلون باختيار مشترياتهم من المحاصيل. غير أن المزارع لن يعرف تماماً مقدار المبلغ الذي سيتم دفعه له، إلا بعد أن يكون قد نقل منتجاته. كما أنه لن يتسلم المبلغ كاملاً، ومن الأرجح أنه سيجب عليه العودة عدة مرات لتحصيل نقوده كاملة. وتراهن الشركة الهندية للتبغ (ITC) بأنه بينما يظل الخيار للمزارع فإنه سوف يختار أن يبيع محصوله للشركة ذاتها.

وقد توجهت إلى مقر المشروعات التجارية الدولية لشركة (ITC) في سيكاندر أباد (تقع عبر النهر في الجانب المقابل لمدينة حيدر أباد) للتحدث مع شيف سيڤاكومار المدير التنفيذي للفرع وأحد مبتكري مشروع «أكشاك الإنترنت». وأثار اهتمامي التزام الشركة بالمحافظة على ملكية المزارع لأرضه وخياراته في الحياة. ومثله مثل الكثيرين جداً من خيرة المديرين التنفيذيين في حقل الأعمال التجارية، فإن السيد سيڤاكومار شخص بسيط، متواضع، دقيق جداً في عمله، ومتحمس جداً للعمل في سبيل وضع تصور واضح لتحسين حياة الفقراء في الهند، عبر اعتماد أساليب أفضل على الصعيد المهني. كان السيد سيڤاكومار وهو متوسط القامة، ذو مظهر جدي، يرتدي قميصاً ذا كم قصير مفتوحاً عند الرقبة وبنطالاً أسود؛ ودار بيننا حديث في مكتبه، الذي يقع عند الطرف الخلفي للمبنى، في يوم مشمس. وقد أبلغني أن التزام الشركة بالمحافظة على عنصر الخيار الحر واحترام ملكية المزارع لأرضه ولعمله، كان أمراً جوهرياً لفلسفة العمل التي تتبناها شركة (ITC) «وتقوم نماذجنا وبناءً على تخطيط معدّ سلفاً بترسيخ الاعتقاد بأننا نستطيع أن نحقق النجاح فقط إذا ما قمنا بعمل مفيد، وأننا نقوم بعمل مفيد عندما نحقق النجاح. وهذا نموذج هندي خاص يقدم شيئاً فريداً من نوعه، شيئاً بمقدورنا أن نفعله بشكل ناجح جداً في قارة إفريقية أو في أجزاء أخرى من قارة آسية، غير أن بإمكانه أيضاً أن يقدم شيئاً لأمريكة الشمالية.» والسيد سيڤاكومار على قناعة بأن المحافظة على حرية المزارع ووكالته الزراعية «تدفع شركة (ITC) إلى أن تكون أكثر قدرة على التنافس باعتبار أن علينا أن نعرض على المزارعين صفقة مغرية أكثر بالنسبة إليهم وتتيح للمزارع أن يحتفظ بكرامته».

وليست كل الشركات المتعجلة على الاستثمار في المجال الزراعي ترى الأمور على هذا النحو. فقد سعى سانيل بهارتي ميتال الذي جمع ثروته من عمله في مجال الاتصالات السلكية واللاسلكية، إلى الالتحاق بركب المشروعات الزراعية الناجحة، وهو في سبيله إلى تأسيس شركة تجارية زراعية، توجه عملياتها نحو التصدير اسمها «بهارتي فيلدفريش» Bharti Field Fresh. وقامت الشركة باستئجار خمسة آلاف فدان في إقليم البنجاب لهذا الغرض، وهي تتعاون مع شركة «روتشيلد غروب» لشحن الفاكهة والخضراوات الطازجة إلى محال السوبر ماركت في المملكة المتحدة. وبإمكان المزارعين الذين لجؤوا إلى تأجير أراضيهم أن يعملوا فيها بوصفهم عمالاً، إذا ما أرادوا كسب دخل إضافي. ويزعم بهاراتي أن هذا سوف يؤدي إلى تحسين سبل العيش، إلا أن هناك مخاوف بأنه حالما يتم تأسيس المنظومة، سيجري جلب عمال من المهاجرين يتلقون أجوراً أقل، وسيجري بالآتي صرف المالكين الشرعيين للأرض من العمل. وصرح نائب رئيس الشركة راكيش ميتال في حديث لصحيفة «انترناشنال هيرالد تريبيون» International Herald Tribune أنه يعتقد أن هذه الفرصة التي تتيحها الزراعة هي أكبر من الفرص التي تتيحها وسائل الاتصالات السلكية واللاسلكية، التي هي أكبر من فرص تكنولوجيا المعلومات [38].

ويُخشى أن تفقد الهند اكتفاءها الذاتي من الغذاء للأبد، بينما ينتقل المزارعون «من تنمية منتجاتهم الرئيسة كالقمح إلى تنمية محاصيلٍ أسعارها أعلى منه مثل البامية والبصل المانغا والتوابل والقريدس وشاي دارجيلينغ وأرز بسمتي ذي الحبة الطويلة، الكاجيو والحليب ولحوم الجاموس» أما المحاصيل التي تزرع فسوف تفرضها أذواق المستهلكين الأوروبيين والأجانب الآخرين، وليست الأسواق المحلية أو الحاجات الغذائية الوطنية. وقد اختارت الشركة الزراعية العملاقة «Pepsico» الهند لتكون مركزاً للمنتجات الزراعية بالنسبة لقارة آسية، حيث تقوم على سبيل المثال بتصدير محلول عصير البرتقال المركز الذي يتم إنتاجه في الهند إلى الأسواق الآسيوية الأخرى[39].

إن عملية تحويل الاقتصاد الزراعي للهند إلى اقتصاد موجه نحو التصدير يكون ذا قيمة عالية فيعمل على استخدام سلسلة المطاعم الخارجية الجديدة لجلب الإنتاج الطازج وبسرعة إلى أسواق المدن والمطارات، حيث تستطيع طائرات الشحن إيصالها إلى الأسواق

الأجنبية، سوف تؤدي دون ريب إلى إحداث تحول في الزراعة الهندية وإيجاد ثروة جديدة. وكان المصرف الهولندي «رابوبانك» Rabobank قد أصدر تقريراً عام 2005. لصالح وزارة الصناعات الغذائية التحويلية في الهند نوه فيه «بأن الهند سوف تضاعف حصتها من الغذاء العالمي والصادرات الزراعية من (1.5) بالمئة إلى 3 بالمئة في السنوات العشر القادمة مع ارتفاع قيمة الصادرات بشكل سريع إلى (30) مليار دولار بحلول عام (2015). بعدما بلغت (8) مليار دولار في عام 2003[40]. ولكن ليس من الواضح إلى أي حد سوف يقوم المزارعون المعدمون في الهند بالمشاركة في هذه الثروة. وفي حين ترتفع أسعار المنتجات الأساسية في السوق الداخلية للهند، فإن الملايين من الفقراء في البلاد يواجهون، وبصورة متزايدة خطر سوء التغذية أو المجاعة.

هناك الكثير من الأخذ والرد القائم حول مسألة هدر المواد الغذائية في الهند، لأنها تفتقر إلى سلسلة خارجية لنقل الفاكهة والخضراوات الطازجة بشكل سريع إلى أسواق المدن والأسواق الأجنبية. ويفترض هذا النقاش أن هناك مستهلكين من المدن ومن الأجانب فقط يستهلكون الأغذية الهندية. وقد نفى السيد سيڤاكومار وجود أي هدر، وأكد لي أنه «على المستوى الكلي، يستمر الناس في الحديث عما نسبته خمسة وعشرون إلى ثلاثين بالمئة من الهدر، ولكن الهدر يطال كمية قليلة جداً من الغذاء. والحاصل هو عبارة عن تراجع في قيمة السلع. فسعر المنتج في محل السوبر ماركت يبلغ مئة روپية في الصباح، وسبعين في منتصف اليوم، وثلاثين في نهاية اليوم. وإذا ما كان كل شيء سيباع بمئة روپية، فماذا يحدث للذي يشتري بمبلغ ثلاثين روپية؟ لدينا طبقة متوسطة آخذة في النمو تفضل إنفاق مئة روپية إذا ما كانت الجودة متوافرة، لذا فإن هناك خسارة في ثمن السلع التي تباع بمبلغ ثلاثين روپية، إلا أنه ليس هناك أي هدر من هذا القبيل».

وما لم يكن باستطاعة الشركات أن تلتزم بنوعية المفهوم المستند إلى علاقة الربح الأكيد المتبادل أو الفائدة المتبادلة بينها وبين المزارعين والمعمول به وفق برنامج «أكشاك الإنترنت» الذي وضعته شركة (ITC)، والمنطلق من كون الناس هم مصدر الاستثمارات، فإن هناك خطراً حقيقياً يهدد بنهب القطاع الزراعي الواسع في الهند لصالح تحقيق الأرباح للشركات المتنفذة التي تركز على عملية التصدير وعلى عملية الإنتاج، من أجل تلبية المتطلبات المتزايدة لسوق

الإيرادات الأعلى الناشئة في الهند. وسيرغم المزارعون المستقلون على التخلي عن إنتاجهم لأصحاب الشركات، ويجبرون على العمل لديهم بموجب عقود في الأرض، التي كانوا يتولون إدارتها سابقاً. وإذا ماحدث ذلك، فإن مزارعي الهند في القرن الحادي والعشرين سوف يجدون أنفسهم في وضع ليس بعيداً عن الوضع الذي كان عليه النسَّاجون الهنود في القرن الثامن عشر عندما سلبت شركة الهند الشرقية منهم قوتهم كمنتجين مستقلين، وحولتهم إلى عمال بالقطعة، يعملون في تجهيز المنتجات لسوق الرفاهية الأوروبية، وهم يؤسسون في الواقع ومرة ثانية، لقيام إمبراطورية تجارية على حساب الجماهير الهندية المعدمة.

ويعتقد سيڤاكومار المسؤول في شركة (ITC): أن الهند متنوعة جداً وديمقراطية جداً بالنسبة لهذا النوع من النموذج الاستغلالي، مما يجعل من نجاحه أمراً صعباً. وستحول تركيبة الديمقراطية الهندية ومستوى الاختلاف في الخواص، في النهاية، دون تحويل الزراعة الهندية إلى منظومة زراعية صناعية وفق النمط الأمريكي. فالمنظومة الهندية تستند في أسسها إلى آلية تمويل القروض الصغيرة وإلى الميول المحلية. وقد مضى على وجود المنتجات الغذائية لشركة «كيلوغ» Kellogg's هنا زهاء عشرين عاماً. وهي ما تزال بالكاد تحقق ربحها البالغ عشرين مليون دولار. كما اضطرت سلسلة مطاعم ماكدونالد إلى تغيير منتجاتها بشكل كامل من أجل الهند. وهكذا فإن هنالك ضابطاً واحداً يتمثل في الديمقراطية، وضابطاً آخر يتمثل في تمويل القروض الصغيرة، فالمزارع الهندي يعمل في ظل أوضاع قاسية جداً. وتحتل مسألة تمويل القروض الصغيرة أهمية خاصة في الهند، لأن المزارع الهندي الذي ينتج على نطاق ضيق يعمل ضمن هوامش ضئيلة جداً، فيكون غير مشمول بالقروض التقليدية التي تقدمها المصارف الكبرى. ويرحب سيڤاكومار بالحراك الدائر والاهتمام الذي يحظى به القطاع الزراعي في الهند من جانب الولايات المتحدة في صورة «مبادرة المعرفة»، «لأنها فتحت الباب للمناقشة». وقال وهو ينقر بقلمه على مكتبه: «لم نجر أي نقاش جدي بشأن النموذج الذي يجب أن تتبعه الشركة التجارية للإنتاج الزراعي؛ لأنه ليس هناك من شركة تجارية هندية للإنتاج الزراعي؛ وهناك في الوقت نفسه الكثير من العمل الذي بإمكاننا القيام به معاً عبر الاتفاقية الزراعية. ونحن باستطاعتنا أن نتعلم من النهج الأمريكي وهناك وعي كبير على الجانب الهندي لما هو موضع خلاف لناحية

حقوق الملكية الفكرية، ولناحية البحوث العلمية الجامعية. ولكنّ هناك حلول توافقية في أي مفاوضات ثنائية. وسيقرر الهنود في النهاية ما هو الأفضل بالنسبة للهند».

وفي غضون ذلك يلتزم السيد سيفاكومار بتوسيع خطة أكشاك الإنترنت، التي وضعتها شركة ITC: «نريد أن نكون موجودين في مئة ألف قرية بحلول عام 2010». وعندما التقيته كانت الشركة قد بدأت للتو في تطبيق برنامج رائد لإتاحة الفرص التعليمية للقرويين عبر أكشاك الإنترنت. وقال: إن القرويين الهنود كانوا توّاقين للتعلم، ولم تكن هناك فرص تعليمية جيدة في متناولهم. كما تقوم شركة ITC باستطلاع إمكانية تنفيذ برامج محو الأمية للكبار مجاناً، وبالعمل مع البرنامج الناجح الذي أعدته شركة Tata للاستشارات، وكذلك إدراج برامج تعتمد على المنهاج الدراسي للمدارس الثانوية. إن الإمكانيات التي تنطوي عليها خطط مثل خطة أكشاك الإنترنت لإتاحة المدخل أمام غالبية الشعب الهندي من أبناء الأرياف ممن يتعرضون للإهمال، للحصول على الفرص التعليمية، الصحية، والترفيهية، هي بالتأكيد إمكانيات هائلة بشكل واضح.

استخدام المدينة لإنقاذ البلاد

في عام 1958، ترك جون بايسل، وهو أمريكي من ولاية كونكتيكت عمله بوصفه بائعاً في مخزن «ما يسي» الكبير المتعدد الأقسام، وجاء إلى الهند بدعوة من مؤسسة فورد لمساعدة الجمهورية التي كانت ما زالت حديثة العهد نسبياً على تطوير صناعتها النسيجية، التي تعتمد على الأنوال اليدوية. فوقع في حب الصناعات الحرفية الهندية، وأغرم بامرأة هندية تدعى بيملا. وأقام الزوجان منزلهما في نيودلهي. كان الاثنان من المبادرين إلى طرح عدد من المشروعات: فأسس جون «فابيندیا» «Fabindia» وهي شركة تسخِّر عملها لإحياء الحرف الهندية التقليدية في الوقت الذي تؤمِّن فيه أسباب الرزق للهنود من أبناء القرى. أما بيملا أو بيم كما تُعرف عادة، فقد أسست دار «بلاي هاوس»، وهي روضة أطفال حديثة تطبق أفكاراً وأساليب مبتكرة في التربية، وتخرَّج فيها العديد من الشخصيات الهندية البارزة.

وعلى مدى سنوات عدة، أبقى جون بايسل على الحجم الصغير للشركة، وكان يدير في البداية مخزناً يبيع نوعاً واحداً من البضائع في حي «غريتركايلاش» في دلهي. ثم توسعت

شركة «فابيندیا» بالتدريج. إلى أن توفى جون بعد معاناة طويلة مع المرض في عام 1998. وتولى ابنه الذي رزق به من زواجه من بيم، إدارة أعمال الشركة (أما ابنتهما مونسون فهي مخرجة سينمائية عملت في فيلمي «عرس الرياح الموسمية» و«الأرض»). وبينما ظل الابن ملتزماً بحماسة برؤية والده للدور الحيوي، الذي تقوم به الصناعات الحرفية في المجتمع الهندي والثقافة الهندية، فقد كان يعمل بشكل متواصل على توسيع شركة فابيندیا. وكانت سلسلة متاجر الشركة تفاخر بوجود أربعة وثلاثين مخزناً تابعاً لها في العام الماضي مع وضع خطط لإنشاء ثلاثين آخرين. وعندما ذهبت إلى مكاتب شركة فابيندیا في منطقة اوكلا الصناعية في دلهي للقاء ويليام بايسل والاطلاع على أمور الشركة، كانت هناك مالكة مخزن من مدينة غواندونغ في الصين، وكانت أعمالها تسير بشكل مرضٍ جداً، مما جعلها تخطط لفتح مخزن آخر. وتمتلك شركة فابيندیا مخازن في روما وفي دبي، وهم يخططون لافتتاح واحد في مدينة نيويورك أو كونكتيت. كما بدأت الشركة بإدارة أعمالها التجارية على الإنترنت في عام 2005.

تقع منطقة اوكلا الصناعية في الضواحي الجنوبية الشرقية لمدينة دلهي بالقرب من نهر يامونا. وهي تضم مبانيَ متتالية من المصانع والمستودعات الإسمنتية العريضة المنخفضة، ومن دون واجهات أمامية. ولا تبدو مكاتب شركة فابيندیا من الخارج مختلفة عن أي مبنى في الجوار. وهناك في الداخل مستودع ضخم وعميق يقع ضمن عدة طبقات وتصطف المكاتب وقاعات الاجتماعات على طرفي المبنى. ويعمل الجزء الباقي كوكالة مركزية أو كغرفة مقاصة لتجميع البضائع التي تصل من كل أنحاء الهند حيث يتم بعد ذلك فرزها من أجل شحنها إلى المخازن المختلفة.

ويليام بايسل رجل طويل القامة في بداية سِنيِّه الأربعين، وكان يرتدي قميصاً مصنوعاً من نسيج محاك بالنول اليدوي عندما التقيته وعقبت على الفور قائلة: إنني لم أكن ارتدي واحداً مثله. درس ويليام في مدرسة «لوميس تشافي» Loomis chaffee في مدينة ويندسور بولاية كونكتيكيت وفي جامعة ويسليان Wesleyan؛ ثم عاد إلى الهند. وقبل التحاقه بعمل الأسرة، عمل لصالح «مركز العلوم والبيئة» ومحطة إذاعة بي. بي. سي. أما مقدار ما يعرفه من معلومات عن الأنوال اليدوية فهو مماثل لما يعرفه أي شخص آخر في البلاد، أو أكثر.

وفي أثناء سيره في مستودعه، التقط قطعاً مختلفة من الثياب. كانت هناك قمصان قطنية محبوكة للرجال باللون الأزرق الغامق، مع عينات قليلة من القمصان النسائية باللون الأبيض المائل للصفرة، وقمصان طويلة تصل إلى الركبتين محاكة بنقوش أنعم وأوضح مصبوغة بالألوان البرتقالية والحمراء الداكنة. وكانت هناك أغطية للطاولات باللون العاجي مصنوعة من قماش الموسلين الخالص، ومطوية على نسق مربعات مرتبة. وقد كان بإمكانه أن يحدد مباشرة أية قرية جاء منها القماش.

كان هناك جو عائلي يخيم في أرجاء شركة «فابيندیا». ودعيت إلى مكتب ويليام في الطابق العلوي، لتناول الغداء مع مشترٍ صيني، وأحد أعضاء فريق المصممين التابع لوليام. كان الطعام من صنع منزلي بسيط ولذيذ؛ وفي الطابق الذي يلينا نزولاً كان مديرو المخازن من جميع أنحاء الهند متواجدين هناك، يعقدون اجتماعاً ويستمتعون أيضاً بنوعية الطعام نفسها؛ وقد اختلط الجميع بعضهم ببعض بحرية. ومما أثار دهشتي قلة عدد الرجال الذين كانوا في المكان. وعندما استفسرت من ويليام عن هذا الأمر لاحقاً قال لي: «إن معظم مديري مخازننا وكبار المسؤولين في الإدارة هم من النساء».

أمضيت بعض الوقت مع أنجانا باترا التي ترأس البرنامج التدريبي للشركة. وكان قد مضى على عمل أنجانا مع شركة «فابيندیا» زهاء تسع سنوات. وهي امرأة لطيفة المعشر في الخمسينيات من عمرها، وكانت ترتدي قميصاً فضفاضاً، وأعطتني درساً خصوصياً موجزاً عن الشركة. كان أول شيء أردت السؤال عنه هو الطعام. فأوضحت: «أن الطعام كله يأتي من طرف امرأة تطبخ خارج بيتها. ونحن نعطيها منتجاتنا الغذائية العضوية، وهي تستخدمها في عملية الطهي. وقد طلبنا منها أن تقوم بإعداد بعض وصفات الطهي لنا». لم أكن أعلم بموضوع تنويع الشركة لمشروعاتها بحيث تشمل الأغذية العضوية. كنا نجلس في مكتب انجانا المنزوي، وكانت هناك تقارير قديمة، ونشرات تفصيلية، ووثائق للشركة مكدسة داخل خزانة معدنية. كانت غرفة المكتب مضيئة مشرقة، وعملية بشكل عام. «بدأنا خط إنتاج الأغذية العضوية منذ عامين تقريباً. ونحن نبيع الحبوب، البندق، الأعشاب، المكسرات،القهوة والشاي في مخازننا حالياً. وتتوافر الفاكهة والخضراوات الطازجة للتسليم في دلهي عبر موقعنا على شبكة الإنترنت. وقد أضفنا إليها الأغذية المصنعة، والأطعمة المحفوظة، ذاك

النوع من الأشياء. كما أننا نقدم وصفات مختلفة لإعداد ألوان الطعام. ونحن نفكر بفتح مقاهٍ، ولكننا إذا ما فعلنا ذلك فإننا سوف نتعاقد مع طرف آخر لإدارة المشروع».

وسألت انجانا عن التطور الخارق الذي حققته الشركة في السنوات الأخيرة، فأجابت «حسناً، الكثير من ذلك يعود إلى ويليام غير أننا لا نعلن عنه. لقد آمنا دائماً بالكلام الشفهي. وتلك هي الطريقة التي تطورنا بها؛ وأنت تعلمين أن عملياتنا التجارية القائمة على الإنترنت هي دولية كلياً، والناس يزورون الهند، ويكتشفون وجود شركة «فابيندیا»، وهم يرغبون في أن يتمكنوا من الحصول على منتجاتنا عندما يعودون إلى ديارهم. كذلك يشكل الهنود في بلاد الاغتراب زبائن دائمين آخرين. ونحن نتلقى طلبات من كل أنحاء العالم».

وتساءلت عن سبب الامتناع عن اللجوء إلى الإعلانات للدعاية للشركة فضحكت إنجانا، وقالت: «هذا العمل التجاري يتعلق بما هو أكثر من العمل التجاري. فقد كانت رؤية والد ويليام تتمثل في زيادة إنتاج الصناعات الحرفية إلى أقصى حد. وكان مفتوناً ومعجباً بوفرة التصاميم والمهارات الفنية. وأراد أن يعرض هذا الفن للعالم. وكان يعتقد أيضاً أن الناس بحاجة إلى أن يكونوا قادرين على البقاء في قراهم. ورأى أنه إذا ما كان بالإمكان تسليم الناس أعمالاً منتظمة ليؤدوها، وإذا ما كان بالإمكان أن يجنوا رزقهم من هذه الحرف التقليدية أو حتى إذا ماكان بالإمكان إحياء الحرف القديمة، فإن باستطاعتهم البقاء في مجتمعاتهم المحلية.

وماذا عن اسم الشركة، فابيندیا؟ وقلت لها: إنني وجدت الاسم جذاباً جداً ورائعاً، فضحكت ثانية، وقالت: «كلمة فابيندیا، تعني fabric نسيج زائد India الهند، وهي تعني أيضاً «الهند الرائعة».

وتوقف ويليام عند مكتب إنجانا، قائلاً: «دعيني إذن أُريكِ كيف يعمل هذا المكان». وتوجهنا خارجاً عبر الباب بعيداً عن دهليز المكتب؛ وقد صدمت على الفور بالحر المرهق، فالمستودع لم يكن مجهزاً بمكيِّفات الهواء، وكانت الحرارة في الخارج تبلغ (110) درجات فهرنهايت على الأقل. ولم يبدُ على ويليام الانزعاج، وأراني سلسلة من الأقفاص يمتد ارتفاعها من الأرض إلى السقف مملوءة ببضائع مختلفة. «هنا نقوم بتجميع الطلبات الخارجية. نحن

نبيع فقط عبر منافذ البيع الخاصة بنا. وكل واحد من هذه الأقفاص يحتفظ بما طلبه مخزن معين من أجل بيان موجوداته وجرده. ثم أخرج منها أشكالاً مختلفة من القمصان، ومفارش الطاولات، وأغطية المخدات، وكان يعرف رقم بطاقة الموجودات الخاصة بكل من هذه السلع. وسألته عن كيفية إدارة عملية الفرز وتلبية الطلبات فأجاب: لدينا عبقري في التكنولوجيا. لا، هذه حقيقة. إنه يجعلنا نعمل بصورة فاعلة أكثر من وول- مارت. إن نظامنا يستطيع أن يتعامل مع شرائط «الباركود» التي تتضمن معطيات عن المادة المبيعة وثمنها، أكثر مما يستطيعه جهاز وول مارت. ولا بد أنني بدوت غير مصدقة، لأنه أضاف قائلاً: لا، هذه حقيقة.

وسألته عن القطن البلدي. وأبلغته بالأمور المزعجة التي كنت قد شاهدتها في ڤيداربها، وبما قاله لي الجميع بأنه بينما كان القطن البلدي متكيفاً بشكل رائع مع ظروف الزراعة المحلية الجافة ومع أنواع التربة، فإن طول تيلته كان قصيراً جداً بالنسبة للأنوال الكهربائية. وغدت ملامحه كئيبة قليلاً، وهو يقول: «إن القرويين الذين نعمل معهم يقومون بفرز خيوط الغزل التي ينسجونها. والقطن البلدي مناسب تماماً للأنوال اليدوية. ولو رأينا أنه كان علينا أن نتدخل على مستوى القرار المتعلق بالقطن البلدي لكنا فعلنا ذلك. وكنا قد تدخلنا قبل ثلاث أو أربع سنوات من أجل معالجة موضوع الضريبة المفروضة على الألبسة الجاهزة، التي شملت الأنوال اليدوية. وعدنا أدراجنا إلى مكتبه الذي كان، ولله الحمد مزوداً بمكيِّف للهواء.

«نحن مجموعة من الناس الذين يساورهم القلق على مصير المنتجات الصناعية للأنوال اليدوية وعلى مصير التنمية الريفية. وقد طرحت شركة «فابيندیا» في الأسواق بطاقة بيان مواصفات للعلامة الحرفية مشابهة لبطاقة بيان مواصفات العلامة الصوفية. وهي تشير إلى نوعية التقنية التي استخدمت في إنتاج القماش مثل «محبوك» أو «مطبوع» بتصاميم معينة. فالتطور أمر مثير للاهتمام. دعيني أريكِ شيئاً. وسحب دفتر أوراق قانونية من فوق مكتبه، ورسم لي مخططاً إيضاحياً. هذا هو المكان الذي نجد فيه صناعات يدوية جيدة. «كان للرسم البياني جانبان أحدهما للهند الريفية، والآخر للهند الحضرية. وكان كل واحد منهما مقسماً إلى ثلاث مناطق. فعلى جانب الهند الريفية كانت هذه المناطق تضم محصولاً

واحداً، محصولين اثنين، وثلاثة محاصيل، أما على جانب الهند الحضرية فقد كانت هذه المناطق تضم التعليم، الإدارة، والتكنولوجيا. وقال بالنسبة للهند الريفية: إن أفضل الحرف كانت توجد في مناطق المحصول الواحد. أما في مناطق المحصولين فقد كانت نوعية الحرف من الدرجة الثانية. ولم تكن هناك من حرف في مناطق المحاصيل الثلاثة، فسألته، لا وقت لديهم، أليس كذلك؟ أجاب «بالضبط». ثم قام بتعداد أسماء بعض المدن الهندية، وأردف قائلاً: أنت تحصلين على صناعات حرفية في الأماكن التي لا توجد فيها مثل هذه المزايا، في لوكناو، في اندور، في سيليغوري، في شيلونغ، أما في بنغالور؟ كوتشين؟ فلا مجال للتفكير في الموضوع».

هذا لا يعني أن ويليام بايسل يعارض تعليم القرويين في الهند. فقد كان له دور فاعل في تمويل مدرسة في راداستان. وقد جادل بأنه «إذا ما تمكن الناس من الحصول على تعليم جيد في المناطق الريفية، فإنهم سوف يبقون فيها». وكانت المدرسة قد تأسست في عام 1992. وهناك الآن أربعمئة تلميذ فيها. «وتدفع الفتيات نصف رسوم التعليم، وهي رسوم معتدلة جداً. وتستمر الدراسة في المدرسة حتى الصف العاشر وستصل قريباً إلى الصف الثاني عشر. وسوف نقوم بفتح مدرسة ثانية أيضاً». كما أبلغني أنهم استخدموا موادَّ محليةً فقط في بناء المدرسة، وهم يلجؤون إلى تجميع المياه، وجمع مياه الأمطار خلف السدود الترابية. وأعطاني نشرة مطبوعة ومفصلة تحوي معلومات عن المدرسة.

وبما أن عمله كله يعتمد على الأنوال اليدوية التي تنسج القطن، فقد سألته عن وضع الصنف Bt من القطن والبذور المهندسة وراثياً في مواجهة المئات من الأصناف التقليدية المحلية والمتنوعة. فقال: إنني إنسان عملي ورجل أعمال، وأعتقد أن عليك أن تجري معادلة بشأن المكان الذي تنفقين فيه كل التكاليف، عندما تقومين بحساب الأرباح. فهناك ثمن للتنوع الوراثي، فدعينا نعطي ذلك أهمية. إن ما تفعلينه أساساً هو استبدال عشرين مجموعة متنوعة باثنتين لهما حقوق محفوظة. وهذا أشبه بوضع جميع بيوض بقائك في سلة واحدة.

وختم بالقول وهو يبتسم: «أنا أعمل في مجال الأنوال اليدوية لأسباب عملية أيضاً. إنها تجعلك تشعرين ببرودة أكثر، فالقماش يتنفس. وأنا أرتدي فقط ما هو محيك بالأنوال

اليدوية». وتخيلت خزانة ملابسي في بيتي في نيويورك. عندي بالفعل بعض الثياب المحيكة يدوياً بالنول، من الهند، ولكن عندي بالتأكيد الكثير من الثياب الأخرى أيضاً، ومن المرجح أن معظمها كان مصنوعاً من قطن مهجن أو من صنف القطن Bt. و عندي بعض الملابس المصنَّعة من نسيج تركيبي مشتق من النفط. ولم أكن واثقة من طبيعة نسيج الملابس الصوفية. فأنا لم أتخلص من الأشياء غير المرغوب فيها في خزانة ثيابي بعد، لكنني ألقيت نظرة على ملابسي عبر مفهوم جديد.

وفي طريق عودتي إلى البلدة فكرت في القرى التي شاهدتها في الجبال في وسط فرنسة في عام 1980. حيث أجريت دراسة عن الألحان الشعبية التي كان يعزفها أهل الأرياف الفرنسيون على آلة الكمان. وتعلمت مجموعة من المعزوفات الموسيقية على يد موسيقيين ماتوا جميعهم الآن، وهي موسيقا كانوا قد تناقلوها معهم غير منقوصة، من القرن التاسع عشر والقرون التي سبقته. وشهدت أسلوباً من الحياة لم يعد قائماً. ومعظم تلك القرى باتت الآن منتجعات لقضاء العطلات بالنسبة للعائلات الهولندية والبريطانية، التي اشترت المنازل الحجرية القديمة من أجل تحويلها إلى بيوت لقضاء الصيف فيها. وتابعت رؤية أحد بيوت المزارع القديمة بسقفه الرائع المصنوع من القش، وهو يتفتت إلى ركام على مدى السنوات العشر التي تلت. ومن سنة إلى الأخرى، انخفض سطحه، الذي ظل دون إصلاح، إلى الأسفل تدريجياً حتى تقوس بأكمله. وبدأت الجدران المبنية من الحجارة بالتداعي بعد ذلك.

اختفى عالم الفلاحين الكادحين في فرنسة، واختفت حياة القرى، بما في ذلك الموسيقا، والاحتفالات، والحرف كلها اختفت في أقل من عقد من الزمن. وقد شاهدت الأمر يحدث. وحدث هذا النوع نفسه من الاختفاء السريع للقرى الهندية التقليدية في ولاية غوجارات في الهند في الثمانينيات من القرن الماضي[41]. وقد تساءلت وأنا أستمع إلى ويليام بايسل، بعد كل ما عرفته عن الخطط الموضوعة لتحديث الهند، وعن خطط التصنيع الزراعي، كم من الزمن يمكن لحياة القرى التي تشكل مصدراً للحرف اليدوية التي يرعاها ويليام، أن تدوم وتستمر. وفكرت في البلدات الصغيرة التي كانت تشهد حركة ناشطة سابقاً في منطقة وسط الغرب الأمريكي التي تحولت إلى بلدات أشباح هجرها سكانها والـ 150,000 مزرعة أسرية امريكية التي تتراجع سنوياً. والملايين من المزارع التي ضاعت على مدى السنوات العشرين الماضية.

لعبت شركة «فابيندیا» ومدة خمسين عاماً دوراً في رعاية ثروة من التقاليد الحرفية الهندية، ووفرت للقرويين حياة لائقة مقابل ما أبدوه من مهارات، ووظفت الشركة أموالها في تأمين تعليم جيد برسوم متيسرة لأولاد القرى، ولا سيما الفتيات. فإن كان ويليام على صواب، وإن كان باستطاعة الشركة أن تقوم بذلك العمل مدة عشرين سنة أخرى، فإن الهند، كما يعرفها ويحبها الكثيرون منا، ربما لن تواصل البقاء فقط، وإنما ستصبح أفضل. وإن كان باستطاعة شركة «فابيندیا» أن تجعل الملايين من سكان المدن في الهند، وأوروبة، والصين يدركون قيمة الأنوال اليدوية والحرف اليدوية، فإن المزيد من سكان المدن الكبرى، من أمثالي ربما يلقون نظرة على ما هو معلق في خزائنهم، ويفكرون على الأقل في مصدر الثياب، وما هي الأشياء التي تدخل في صناعتها.

سألت وليام عن المشروع التجاري الذي تنفذه شركة فابيندیا لإنتاج الأغذية العضوية. قلت له: إنني شعرت بالإزعاج لما علمته بشأن موضوع التلوث بالمبيدات الحشرية في الهند.

فأجاب: «إن الحكومة الهندية توجد مبررات لعملية التصنيع الزراعي، لأنها تعتقد أن ذلك سوف يُوجد وظائف، وسوف يفسح المجال أمام قيام الكثير من المشروعات الاستثمارية. ومع مجيء الثروة الخضراء، ارتفع إنتاج القمح، وكانت هنالك فجأة كميات كبيرة جداً من المياه للري بسبب المشروعات المائية الجديدة فبدؤوا يزرعون الأرز في البنجاب. وكان ذلك ضرباً من الجنون. فقد هبط مؤشر الجدول البياني للمياه وتلوثت التربة والمياه وبصورة مكثفة، بمادة النترات. ونحن محظوظون بطريقة ما هذه المرة، لكوننا متأخرين جداً في دورة المسار (النباتي). وسيتم الكشف عن النهج الغربي بأكمله. وإذا ما كان بمقدور الهند أن تصمد مدة عشرين سنة أخرى، فإن هذا الغزو الأخير سينكشف على حقيقته: مجموعة من الشركات المتنفذة القوية التي تبحث عن تحقيق الحد الأقصى من الأرباح».

ويجب على الهند لكي تثبت أن ويليام على صواب أن تخترع نماذجها الخاصة بها، وأن تبرهن أن بإمكان هذه النماذج أن تحقق النجاح في الهند، ومن ثَمّ تحملها إلى العالم.